ضمد كاظم وسمي

النهضة الأوربية وقضية الحرية

إصدار عن منتديات ليل الغربة نيسان 2009

ضمد كاظم وسمي

النهضة الاوربية وقضية الحرية

نيسان 2009

الاهداء

((وليس حريباً من أصيب بماله ولكن من وارى أخاه حريب
بكائي طويل والدموع غزيرة وانت بعيد والمزار قريب))

الى زين الشباب الآفل .. وا أسفاه !
الى أخي العزيز ((**فهد**)) الراحل الى رحمة ربه
أُهدي هذا الكتاب .

ضمد كاظم وسمي

المقدمة

أن البحث في موضوع .. كان الشغل الشاغل للعالم منذ ستة قرون خلت ، ولما يزل فاعلاً ومؤثراً – ألا وهو موضوع النهضة – يعد مسألة جديرة بالأهتمام .. قمينة بالدراسة ، لاسيما وأن النهضة قد غيرت وجه العالم ونقلته ، من عالم بدائي ومتخلف الى عالم الصناعة والحداثة والتقدم العلمي .. الذي ننعم جميعاً بمنجزاته التكنولوجية .. الأمر الذي يملي علينا التعرف على جذور النهضة وكيف كانت الحضارة الإسلامية الغابرة .. هي المؤسس الحقيقي للعلوم التي بنيت عليها الحضارة الغربية الحديثة ، والأطلاع على أحداث هذه النهضة والتطورات التي رافقتها .. والتي لعبت دوراً حاسماً في تقويض النظام الإقطاعي الذي يعد القاعدة المادية والإجتماعية للنظام الإقتصادي خلال فترة القرون الوسطى .

ولابد من الوقوف عند أهــم مظــاهر النهــضة الأوربيــة ومميزاتها التي نادت بإمامة العقل ومجّدت كرامة الإنسان .. رغم ما شابها من مثالب .. وما خالطها من مظالم .

أن النهضة الأوربية عصر قائم بذاته .. فهو عصر الآداب البديعة والفنون الخلاقة .. حيث تجلى ذلك واضحاً فــي إيطاليــا التي مهدت لها نتيجة عوامل عديدة امتازت بها سجلت لها السبق على باقي الأقطار الأوربية في مضمار النهضة .. لكن يجب أن نستدرك بأن عصر النهــضة انتهــى الــى ظهــور الموجــات الأستعمارية التي حطمت حضارة العالم الجديد وأبــادت ملايــين البشر من الأمريكيتين .. فيما مزقت الشرق ورمت به في دوامة التفرق والتطاحن والتشرذم .. غير أن ذلك لايمنع من أن نقــول بأن ماوصلت إليه الإنسانية اليوم بفضل النهضة .. مــن تثبيــت لأركان الحرية .. وتشييد لأعمدة الإنسانية العظيمة .. وترســيخ

لقيم المساواة والتآخي .. وكفالة العيش الكريم .. كان نتاج كــل العصور وصناعة كل الشعوب .

أننا بحاجة ماسة الى الإطلاع على أحوال عصر النهــضة وسيرورته ونتائجه .. في وقت تمر فيه البلاد العربية في مرحلة مهمة من التحول والتقدم ، وبالتالي بات من الضروري أن نعرف انماطاً مختلفة للتفكير ونماذج صالحة للتغييرالقيمي في بلاد أوربا أبان عصر النهضة .. لعلنا نقتدي بعناصرها الــصالحة لبيئتنــا لإثراء عملية التحول النهضوي التي تحياها بلادنا .

الفصل الاول

مراحل الحضارة .. وجذور النهضة

مراحل الحضارة الغربية

مرت الحضارة الغربية بثلاث أحقاب تاريخية .. الحقبة الأولى تعرف بالعصور القديمة .. وكان الفكر الإغريقي سيد هذه الحقبة بلا منازع .. وقد أخذ الإغريق من الحضارات القديمة من مصر وبابل وآشور وبلاد الشام وفارس .. من معارفها وخبراتها الشيء الكثير . لكن لابد من الإذعان الى أن الإغريق هم واضعوالمنهج العلمي .. فضلاً عن تفوقهم في التأمل الفلسفي .. وإبداعاتهم المتميزة في الأدب والفن وحيث جاء الشعر الإغريقي وباكورته ملحمتان هما الإلياذة والأوديسا .. وظهر فنهم متمثلاً بالنحت والنقش والتماثيل البشرية والحيوانية والبناء .

إلا أن ما يؤخذ على الإغريق انهم ظلــوا متــأخرين فــي ميادين الإدارة والأجتماع رغم تقدمهم المتميز في ميــادين العلــم والفلسفة والأدب والفن حيث لم يقيموا دولة قوية ولابنوا مجتمعــاً متماسكاً . بيد أن الرومان خلفاء الإسكندر المقدوني تلميذ أرسطو .. أقاموا إمبراطورية عملاقة وبذلك تداركوا ما فات الإغريق .

العصور الوسطى

أما الحقبة الثانية فتسمى بالعصور الوسطى (ق٥ – ق١٥) (القرن الخامس – القرن الخامس عشر) التي إبتدأت بإنتــشار المسيحية في عهد الحكم الروماني .. رغماً عنه وبــالرغم مــن إضطهاده إياها .. إلا إنها إستطاعت أن تنمو وتكبر حتى قــضت على الوثنية وشيدت أعمدت الإيمان وبذلك أصبحت المسيحية دين الدولة في الإمبراطورية الرومانية ولكن مما يؤسف له أن رافــق ذلك إغلاق معاهد العلم وتقييد حرية الفكر وتحريم الانفتاح العلمي

بحجة محاربة الوثنية ، لذا سمى الغربيون العـــصور الوســـطى بالعصور المظلمة .. حيث كان طابع العلم العام استشراء الغيبيات والشعوذة والرقى والعزائم .. يرتلونها جيلاً بعد آخر . وكان العلم حكراً على رجال الكنيسة الذين أقاموا مدارس لاهوتية تزعم انها تُعلي ملكوت الرب لكنها تلغي ملكوت العقل .

الإسلام والعلم

وفي هذه الفترة جاء الإسلام يحمل في ثناياه الدعوة لإشاعة العلم بين الناس حيث يقول الكتاب الكريم : (هل يستوي الـــذين يعلمون والذين لايعلمون) ، ويقول النبـــي (ص) : ((اطلـــب العلم من المهد الى اللحد)) .. فيما دعا الإسلام إلى الاحتكام إلى العقل ونبذ التقليد .. يقول النبي (ص) : ((العقل أصل ديني)) .. ويدعو الإنسان إلى النظر في حقائق الكون التي هـــي آلاء الله

سبحانه .. في سبيل معرفة الله عن طريق آلائه .. أي أن العلم فريضة وعبادة في الإسلام .

ومما يلاحظ أنه في الوقت الذي رافق انتشار المسيحية في أوربا شيوع الجهل ومحاربة العلم .. نرى أن مارافق انتشار الإسلام هو شيوع العلم والمعرفة بل لم تبنى في الشرق على امتداد تاريخه حضارة عملاقة إلا مع ظهور الدين الإسلامي وانتشاره . وتعد الحضارة العربية الإسلامية هي المؤسس لمعظم العلوم العصرية التي قامت على أكتافها الحضارة الغربية بأعتراف جهابذة علماء الغرب ومفكريه .

عصر النهضة

أما الحقبة الثالثة / عصر النهضة وما تلاه من تقدم علمي وتكنولوجي .. حيث انتج الفكر الصناعي المتقدم الذي يحتل اليوم قمة الحضارة في العالم ويقود دفة الحياة الإنسانية إقتصادياً

وسياسياً وإبداعياً . هذا الفكر نما على أكتاف الحضارة العربية الإسلامية كما ذكرنا سابقاً والتي كانت آيلة الى التفسخ والتهاوي سياسياً لكنها كانت لم تزل مزدهرة عمرانياً وإنتاجاً فكرياً وصنائعياً . وقد اتصل الغرب بالحضارة العربي الإسلامية عن طريق الأندلس ثم من خلال الحروب الصليبية التي استمرت ثلاثة قرون بالإضافة الى نقاط اتصال أخرى كجزيرة صقلية والقسطنطينية . في نهاية القرون الوسطى نجد الغرب قد تجمع لديه كل التراث الفكري العالمي .. معظم هذا التراث انتقل الى الغرب عن طريق العرب لاسيما التراث الإغريقي فضلاً عن الفارسي والهندي والصيني . والأهم من ذلك هو الإبداع الفكري والعلمي العربي .

وفي عصر النهضة (ق ١٤ – ق ١٧م) نجد الغرب قد استوعب هذا التراث العالمي .. لا بل اصبح بإمكانه أن يطوره وأن ينتج إنتاجاً أصيلاً .. وطفق يدرس هذا الفكر متطلعاً الى

الانتصار على الشرق في مضمار الحضارة وقيـــادة الإنـــسانية ، حتى تمكن من الانتقال من عالم بدائي متخلف ، الى عالم صناعي خلاق .. العامل الفعال فيه هو العلم .

مباهج الحياة

وفي هذا العصر شرعت قسمات العصور الوسطى ونظرته الى الحياة بالانحسار فيما أخذت نظرة جديدة تحل محلها ، ومـــن سمات النظرة الجديدة الى الحياة ثقة الفـــرد بنفـــسه واســـتقلاليته وتطلعه للجديد والتجديد ونظرته المتفائلة وحبه للحيـــاة وجمالهـــا وضرورة التمتع بها . وحب الإنسان للإنسان والفرد للمجتمع .

الجامعات العلمية

في هذه الأثناء إنتشرت الجامعات العلمية بعد نشوء المدن في إيطاليا . وقد أقيمت هذه الجامعات على غرار الجامعات العربية في الأندلس في غرناطة وقرطبة . وفي هذه الجامعات وجد الدارسون في كتابات ابن رشد ما يشبع نهمهم للفهم والعلم والفلسفة . ومباديء ابن رشد في الغرب تسمى الرشدية وهي تدعو الى سلطان العقل . حيث استطاع الفيلسوف العربي ترسيخ عقلانيته في التفكير الفلسفي .. مبلوراً كيفية تلقي العربي للتراث الإغريقي وإعادة ضخه الى الغرب نهضة عقلانية وسط عوائق وضرورات .

أخذت أركان قيم المجتمع الأوربية الإقطاعية / الكنسية بالاهتزاز نتيجة لاستقبال أوربا لمؤثرات مهمة من الشرق وبخاصة من العالم العربي والإسلامي .. حيث انتقلت اليها

مؤلفات الفلاسفة اليونانيين كأرسطو وأفلاطون عن طريق الأندلس وكانت تحتوي على إضافات جديدة ، وإبتكارات متميزة نابعة من أصول الحضارة الإسلامية . وأنتقلت العلوم الطبيعيـــة والطبيـــة والفلسفة عن طريق جزيرة صقيلة .. فيما استقبلت أوربـــا بكـــل حفاوة من بدائع الفكر والصنعة العربيين عن طريـــق الحـــروب الصليبية ما كان يكفي لتحريك العقول وشحذها .

العقل واللاهوت

وكان توما الاكويني (١٢٢٥ -١٢٧٤ م) وهو يخـــوض معركة الصراع بين العقل واللاهوت ضد المتزمتين الـــذين لـــم يعترفوا بحكم العقل مثل القديس أغسطين .. كان توما يفعل ذلـــك بتأثير اطلاعه على الفكر العربي وإعجابـــه فـــي قـــرارة نفـــسه بالرشدية . كما كان روجر بيكـــون (١٢١٩ – ١٢٩٢ م) أول داعية للعلوم التجريبية وكان يشكو من أن الغرب متخلف بالنسبة

الى العرب وقد استوعب الكثير من الفكر العربي وعرف العربية ويستشهد في الكثير من كتاباته بإبن هيثم ، و إبن سينا ، والكندي .. وغيرهم من علماء العرب . ثم تطورت الإكتشافات العلمية وكانت التجريبية نقطة البدء فيها وقد تجدد صداها على يد فيلسوف العلم التجريبي فرنسيس بيكون .

الكوميديا الالهية

أما دانتي (١٢٦٥ – ١٣٢١ م) والذي يعد المبشر الأول لأفكار النهضة وخاصة من خلال رائعته (الكوميديا الالهية) فقد كان متأثراً فيها بأبي علاء المعري في رسالته الموسومة (رسالة الغفران) كما تأثر بإبن عربي في كتابه (الفتوحات المكية) .

ومن الجدير بالذكر أن رائد النهضة الآخر بوكاشيو المعاصر لدانتي كان هو الآخر متأثراً بقصص ألف ليلة وليلة .

العرب قبل كولمبس

أما رحلات إستكشاف العالم الجديد التي تمت في عصر النهضة وضاعفت معلومات الناس عن سطح الأرض ، فقد قالوا أن العرب هم الذين دلوا البحارة الغربيين على البوصلة البحرية . وقالوا أيضاً أن البحارة العرب قد وطئت أقدامهم أرض أمريكا قبل كولمبس .. لكن لابد من القول أن محاولات العرب كانت فردية اجتهادية فيما كانت محاولات الغرب مؤسساتية استعمارية لذلك كتب لها النجاح .

وثمة مجال للقول أن إبن الشاطر الدمشقي ، قد سبق كوبر نيكوس ومن بعده غاليلو في القول أن الأرض تدور ، وإنها ليست مركز الكون .. كما نقل الغرب عن العرب طريقة الطباعة أبان الحروب الصليبية وهي الطباعة بالقوالب .. ثم طوروها الى الطباعة بحروف متحركة حيث وضعت أول مطبعة متحركة سنة

١٤٩٤ م . ومما أخذه الغرب من العرب صناعة الــورق حيــث أنشيء أول مصنع للورق سنة ١٣٩٠ في ألمانيا .

العقلانية

وفي القرن السابع عشر وضع ديكارت أساس صرح الفكر بطريقته العقلانية حيث جعل العقل ينبوع المعرفة وهوالحكم فــي نتائج التجارب .. كما أخذ ديكارت على عاتقه التوفيق بين العلــم والفلسفة والدين . وهو عين ما ذهب اليه قبله الفلاسفة المسلمون ، كإبن سينا وإبن رشد والفارابي .. وهكذا امتصت حضارة الغرب رحيقها من حضارة الشرق .. حيث بدأت النهضة في أوربا تحدياً للوصول الى ما وصل اليه الشرق .. وفي القرن السادس عشر أخذت أعلام حضارة الغرب بالنهوض فيمــا تراجعــت أعــلام حضارة الشرق .. وانتهت حضارة الغرب تعالياً فــوق الــشرق تخلفاً .

الفصل الثاني

الانتلجنيسيا.. واحداث النهضة الكبرى

بعد إنحسار القرون الوسطى التي أمتدت الى القرن الخامس عشر الميلادي دخلت أوربا وخاصة الأجزاء الغربية منهـــا فـــي عصر جديد أصطلح على تسميته بعصر النهضة .. الـــذي أمتـــد ثلاثة قرون من القرن الرابع عشر الى القرن السابع عشر عندها دخلت أوربا في العصر الصناعي وغيرت وجه التاريخ العـــالمي من خلال تقدمها العلمي والتكنولوجي وماتبعه من تغيير في أنماط السلوك والأخلاق والقيم الإجتماعية .

نمو العلاقات الراسمالية

لقد رافق هذا التحول تغيرات عميقة في البنى التحتية للمجتمعات الغربية أفضت الى أحداث تاريخية وإجتماعية وفكرية مهمة جداً ، لعل أسبقها التغير الذي حصل في علاقات الإنتاج حيث أخذت العلاقات الرأسمالية في النمو وسط المجتمع الإقطاعي .. مما سهل تفكك القاعدة الإقتصادية للنظام الإقطاعي

تطور وسائل الانتاج

ومما ساعد على هذا التحول وعجّل فيه حدوث تقدم نسبي في تطور وسائل الإنتاج الحرفي مكن الحرفيين من تكوين مجموعات لها ثقلها في الوضع الإقتصادي .. بل ساهمت في تقدم تكنيك الإنتاج فيما راحت أعداد من الفلاحين مستفيدة من التطور الجديد راحت تتحرر من الاستغلال الإقطاعي وتملك القدرة على

التصرف الذاتي .. هذا التقدم أدى الى عملية تراكم رأس المال بمستويات عالية بالإضافة الى تسريح المزيد من الفلاحين من العمل .. ذلك شجع أصحاب الورش الحرفية على زيادة الإنتاج بوتائر عالية بسبب توفر رؤوس الأموال من جهة وتيسر الأيدي العاملة الرخيصة من جهة أخرى . فأصبحت الحاجة ملحة الى أسواق لتصريف المنتجات المتنامية مما قاد الى تقدم التجارة الخارجية ..

الطبقة البرجوازية

أن هذه التطورات صارت تصطدم بأفكار وقيم النظام الإقطاعي السائد بفعل تخلفها وعدم مسايرتها للتطور وانتهى هذا الصدام الى ظهور طبقة جديدة هي الطبقة البرجوازية التي لعبت دوراً حاسماً في تاريخ الشعوب الأوربية .. وأخذت على عاتقها مهمة تطوير وسائل الإنتاج عن طريق الأختراعات الحديثة .. ثم

أنتجت النظريات الإقتصادية الجديدة التي أودت وبشكل نهائي بالنظام الإقطاعي .

وفي هذه المرحلة تكونت ايضاً طبقة أخرى هي الطبقة العاملة التي تكونت من الفلاحين المعدمين ومن الحرفيين الذين لفظهم الإنتاج الرأسمالي المتنامي . ورغم ما حصل من تطور للطبقة العاملة فأنها لم تشكل في عصر النهضة سوى عنصراً إجتماعياً غير واعٍ .. ولم تكن أكثر من مجرد طاقة لتسيير دفة التغيير.

المؤثرات الاسلامية

ومما ساهم في تكامل عناصر ميلاد النهضة عوامل خارجية تفاعلت مع العوامل الداخلية .. وأهم تلك العوامل الخارجية المؤثرات الشرقية ولاسيما الإسلامية التي شرعت أوربا تستقبلها من طريق الأندلس وصقلية والحروب الصليبية ،

ساهمت هي الأخرى في زعزعة النظام الإقطاعي في أوربا .. حيث تعلّم الأوربيون أهمية التمتع بالدنيا وملاذها مع اهتمامهم بالآخرة ، تعلموا ذلك بعد عودتهم من الشرق مع فلول الصليبين المندحرة .. وإذا بالعمران والبناء الشامخ بالتدريج يظهر في أوربا منافساً ومزاحماً الكنائس والأديرة .

الانتلجينسيا

أن ظهور طبقة التجار وهي طبقة وسطى بين السادة والرقيق الأقنان .. ولاسيما الفئة المثقفة البرجوازية (الأنتلجينسيا) التي أخذت على عاتقها مهمات التطوير الفكري والاقتصادي والإجتماعي .. لعب دوراً كبيراً في التغيرات السريعة التي شهدتها أوربا حيث طفق التجار يزاحمون رجال الدين .. واستند التجار الى العقلانية في التعبير عن أنفسهم على أساس حرية الفكر والتعبير وهو ماشكل حركة نقدية واعية للجمود الفكري

المتمثل باللاهوت الكنسي ، وبذلك يعد ظهور طبقة التجار من بين أهم الأحداث التي مهدت وأفضت الى النهضة الغربية التي قامت على ركيزتين أساسيتين هما التجريبية والعقلانية ..

الروح النقدية

ولابأس من الإشارة هنا الى أن الروح النقدية التي رافقت أحداث النهضة الغربية استلهمت من حضور الشرق العربي الدائم ، في وعي كثير من الأعمال الأوربية فأننا لو استحــضرنا تلــك الروح لدى المعري لألفيناها تتبدى في أعمال دانتي وغيره مــن المفكرين الغربيين .. مما يملي علينا الأعتقاد بتفوق العرب على الأوربيين في تلك الأزمان .

المطبعة المتحركة

ومن الأحداث التي رافقت عصر النهضة وأفضت الى تغيير جذري في نمط الحياة فكرياً وإجتماعياً ، ابتكار المطبعة المتحركة .. فخلال الحروب الصليبية التي امتدت عدة قرون ، أستطاع الأوربيون أن ينقلوا الطباعة بالقوالب من العرب الى أوربا .. ثم أدخلوا عليها الكثير من التعديلات والتغييرات الى أن طوروها من الطباعة بالقوالب الى الطباعة بحروف متحركة .. حيث وضعت أول مطبعة متحركة سنة ١٤٩٤م .. علماً أن الصينيين سبقوا العرب في أستعمال الطباعة في القوالب منذ القرن السادس في حين نقل عنهم العرب طريقة الطباعة منذ القرن الثامن الميلادي .

صناعة الورق

ومن الأحداث المهمة الأخرى انتشار صناعة الورق حيث أنشيء أول مصنع للورق سنة ١٣٩٠م في ألمانيا ومنها انتشرت صناعة الورق في الكثير من البلاد الأوربية ومن الجدير بالـــذكر أن الشرق ولاسيما العرب قد سبقوا الغربيين في صناعة الورق .. وهو مما أخذه الغرب من الشرق .

وكان تيسير الطباعة وصناعة الورق عاملين حاسمين فـــي قيام نهضة علمية وفكرية وتربوية واسعة حيث انتشرت مـــدارس ومعاهد العلم على أثرهما .

عقلنة التعليم

والى جانب ذلك قامت دعوات صارخة للتجديد في أساليب التعليم ومناهجه .. وبدا واضحاً أن التعليم الكنسي / اللاهوتي أخذ

يتعرض الى موجة من النقد العقلي المستوحى من التراث العربي ممثلاً بالرشدية والتراث الإغريقي ذي العبقة العربية – حيث أن التعليم الأرسطي في أوربا أعتبر ولمدة طويلة من قبل آباء الكنيسة فلسفة مشكوكاً فيها ، نظراً لنزوعه المادي – فضلاً عن استلهام المنهج العقلي من التراث العربي فقد جرى التأكيد على التعليم المستمر من المهد الى اللحد .

تحرير المراة

كما ارتفعت الأصوات المطالبة بتعليم المرأة وتحريرها ، وساد جو يدعو الى محاربة التلقين وبناء التعليم على أساس التجربة والعقل ، وفيما أستمر التعليم باللغة الأم تزايد في الوقت نفسه الأهتمام باللغات الشعبية ، ومن الجدير بالذكر أن دانتي كتب كوميدياه باللغة الشعبية الإيطالية .

صناعة الاسلحة

أما إنتشار البارود في هذا العصر فقد صار سلاحاً يهدد حصون السادة ويزعزع النظام الإقطاعي .. ومع تطور صناعة الأسلحة شرعت أوربا بالتطلع للسيطرة على العالم من خلال الكثير من الموجات الاستعمارية التي من خلالها بنت عالمها المتطور ولكن على حساب الشعوب المقهورة التي تعرضت للنهب والسلب من قبل الدول الأوربية .

الاصلاح الديني

كانت الكنيسة لاتزال تهيمن على الفكر والحياة الإجتماعية والسياسية في هذا العصر .. حتى ظهرت حركة الإصلاح الديني التي أفضت الى تغيير جذري في كل مضامير المجتمعات الأوربية وأنماط الحياة فيها . وقد بدأ هذه الحركة لوثر حيث قام

في عام ١٥١٧ بعمل ثوري يدعو الى الإصلاح الـــديني .. تلـــك الحركة طالبت بمنع صكوك الغفران التي كانت تمنحها الكنيسة .. بل وطالبت بأيقاف محاكم التفتيش وما تجريه من قتل وحرمـــان على العلماء وأصحاب الفكر الحر المتعارض مع الفكر اللاهوتي .. وهكذا أدت هذه الحركة الى انقسام الكنيسة التي أخـــذ نجمهـــا بالأفول تدريجياً .. ووضعت حداً لهيمنة الكنيسة .

العالم الجديد

ولقد كان لرحلات استكشاف العالم الجديد التي بدأت فـــي القرن الخامس عشر .. أثراً مدوياً في الغرب .. إذ أمّدتهم بقـــوة هائلة معنوية ومادية استشعروا من خلالها العظمة والقدرة علـــى النفاذ في المجهول لأكتناه أسراره وفك طلاسمه .

ما كان لكولمبس ثم ماجلان ومن سبقهما وتبعهما أن يطأوا أرض أمريكا لولا البوصلة البحرية التي ظلت سراً مصوناً بيـــد

البحارة العرب .. ولابد من الذكر أن البوصلة صنع صيني استعمله العرب .. وقيل أن البحارة العرب قد سبقوا كولمبس في الوصول الى أمريكا .

تدمير الحضارات الاخرى

أن إكتشاف العالم الجديد ساهم بشكل خطير جداً في الإسراع بعملية النهضة والتقدم لما حصلت عليه أوربا من خيرات وفيرة من هذا العالم .. لكن أدى ذلك في الفترة ذاتها الى تدمير حضارة السكان الأصليين في أمريكا الشمالية وأبادتهم .. في حين تصدعت حضارة السكان الأصليين في أمريكا الجنوبية بفعل الغزو الأوربي للقارتين .

الاختراعات العلمية

ومن أحداث هذا العصر ما حصل من تطور علمي خاصة في مضمار العلوم الطبيعية .. التي كانت البرجوازية بحاجة ماسة الى تقدم مثل هذه العلوم لتطوير إمكاناتها الإقتصادية من خـــلال الاختراعات العلمية من جهة وتوظيفها في نسف الأسس الواهيـــة للفكر الأقطاعي من جهة ثانية .

ففي علم الفلك شاعت نظرية كـــوبر نيكـــوس (١٤٧٣ – ١٥٤٣) القائلة بأن الأرض تشكل إحدى توابع الـــشمس وتـــدور حولها في حين كانت الكنيسة تعتقد أن الأرض هي مركز الكـــون والشمس تدور حولها .

تحرير العقول

وهكذا في مجال علم الطب حيث تقدم علم التشريح كثيراً .. بالإضافة الى التقدم الحاصل في علوم الرياضيات والجيولوجيا والتعدين ، الأمر الذي ساهم في تحرير العقول من الخرافات والجهل . هذه بعض أهم الأحداث التي رافقت عصر النهضة وكانت الأساس الذي شيد عليه العصر الصناعي والتكنولوجي الذي غير وجه التاريخ العالمي .

الفصل الثالث

الطبيعة الخلابة جعلت ايطاليا رائدة النهضة الاوربية

النهضة الأوربية عصر قائم بذاته .. فهو عصر الآداب البديعة والفنون الخلاقة .. عصر أنهيار القيم القديمة وتصدع جدران التقليد والأتباع .. عصر العلم الجديد والقيم الجديدة .. عصر المغامرة والإستكشافات الجغرافية .. عصر التحول والأنتقال من العصور المظلمة الى عصور الحداثة .. والأنوار .. عصر النبل والوفاء والمرح والجدية .. ولكنه أيضاً عصر الأستبداد والغدر والخيانة .. وعصر الآلام والتهكم .

تباين مظاهر النهضة

أن مظاهر النهضة لم تقتصر على بلد أوربي دون سواه ، ولاجرى تطورها أو ذبولها بذات الوتيرة ونفس النمط .. فقد

تباينت هذه المظاهر بحسب ظروف كل بلد من تلك البلدان .. إلا أنه يمكن القول بوجود نوع من الإجماع العام على اعتبار إيطاليا مهد النهضة الأوربية ، وفيها بدأت الحركة الأنسانية التي رفعت راية النهضة وجعلت من الأنسان محور الآداب والفنون والعلــوم والفلسفة والأخلاق .

مهد النهضة

مهدت للنهضة في إيطاليا عوامل عديدة ، سجلت لهــا السبق على باقي الأقطار الأوربية .. حيث كان لها من الخــصال المهمة ما تمثل في حركة أحياء العلوم والآداب القديمة .. وظهور اللغة الإيطالية الحديثة .. مع رغبة عارمة في التجديد خاصة في مجال الآداب والفنون الجميلة ، الأمر الذي أمتد الى غرب أوربا الذي نهد الى معارج النهضة حتى بزّ إيطاليا فيما بعد في رحلات استكشاف العالم الجديد ، والأصلاح الديني ، والتفــوق العلمــي

والسيطرة على زمام أمور العالم غير أن إيطاليا تبقى الأرض التي ظهرت فيها أفكار النهضة قبل غيرها بفعل مجموعة عوامل متفاعلة ومتداخلة .

ملتقى العالم القديم

لعب الموقع الجغرافي لإيطاليا دوراً حاسماً في التمهيد لنهضتها .. حيث أنها تشكل ملتقى الطرق المؤدية الى العالم القديم .. تطل على البحر المتوسط في وسطه تقريباً .. وتتوسط بين الأندلس وشرق البحر المتوسط حيث الحضارة الإسلامية ، وبين بيزنطة (القسطنطينية) عاصمة الأمبراطورية البزينطية .. فنهلت من علوم جامعات ومعاهد الأندلس الشيء الكثير لاسيما تمثلها لأفكار إبن رشد العقلية وشيوع الرشدية في أوساطها الفكرية .. وأستفادت كثيراً من علوم العرب وآدابهم والتي انتقلت اليها من طريق صقلية وأثناء الحروب الصليبية مع الفلول

المندحرة للصليبين .. وتجلى ذلك واضحاً في كتابات دانتي وبيكاشيو على سبيل التمثيل لاالحصر . ناهيك عما أفادته من خزائن علوم الأغريق التي أنتقلت اليها من بيزنطة ومن الشرق .

مراكز التبادل التجاري

أعطى هذا الموقع لإيطاليا أهمية إقتصادية بأعتبارها مراكز التبادل التجاري بين الغرب والشرق .. وقام التجار الطليان بدور الوسيط ، فحملوا أنواع السلع من الحرير والجواهر والمسكوكات الذهبية والعاج والتوابل .. الخ من موانيء الأسكندرية ويافا وعكا والقسطنطينية .. الى الموانيء الإيطالية ، جنوا وفلورنسا والبندقية ، مما ساعد على زيادة الثروات لدى أبناء المدن الإيطالية ، فيما راحت إيطاليا تنقل تلك البضائع المستوردة من الشرق الى غرب أوربا بالطرق البرية.. ثم مخروا عباب البحر عبر مضيق جبل طارق الى انكلترا وبحر الشمال ..

ثم يعودون الى سواحل شرق البحر المتوسط محملين بالأصواف والجلود والكتان والفرو والذهب الخام والفضة .. الــخ .. هــذه الثروة المتنامية ساعدت على أنحلال العلاقات الإقطاعيــة فــي إيطاليا قبل غيرها ، فيما بدأت بوادر أزدهار النظام الرأسمالي .. وظهور متطلبات المجتمع الجديد .

النزوع الى التجديد

أدى هذا التحول الجديد الى أهتزاز الحياة الإجتماعيــة وتغير وسائل العمل والعيش .. فيما تمظهرت إيطاليا بطبيعة تتزع الى التجديد في كل شيء .. فأقيمت الجــسور علــى الأنهــار ، وجددت الطرق الرومانية القديمة ، كما فتحت طرق أخرى جديدة . ثم شرع بتقنين التعامل التجاري داخلياً وخارجياً ممــا أظهــر الحاجة الى الأتفاقيات الدولية .. في حين بــدأت تظهــر بعــض

تكتلات التجار الذين أسسوا البنوك ثم وضعت للعملة أسس للأستقرار والتداول الأعتيادي ، لم تشهد له إيطاليا مثيلاً .

ازدهار المدن

ومن بين العوامل التي مهدت للنهضة في إيطاليا .. نمو مدنها كالبندقية التي أزدهرت فيها صناعة الأقمشة وصناعة السفن التي تُعلِم على أزدهار التجارة الخارجية .. وفلورنسا حيث تقدمت فيها الصيرفة بشكل ملفت للنظر ، الأمر الذي أثر بشكل بيّن في الإقتصاديات الأوربية الأخرى .. وهكذا ظهرت أولى المؤسسات ذات الطابع الرأسمالي على الصعيد العالمي .. مما شجع على نمو سكان تلك المدن وتوسعها وثرائها .

أن أزدهار التجارة كان عاملاً محفزاً على نمو الصناعات المختلفة في تلك المدن .. فتكونت نتيجة لذلك نقابات للصناعين والتي تضامنت بدورها مع نقابات التجاريين ، فكونت تجمعاً

سيطر على الحياة الإقتصادية في تلك المـــدن .. ودعـــم تقـــدمها الإقتصادي والإجتماعي .

السلام الاهلي

تمتعت إيطاليا بالسلام لفترة طويلة ، الأمر الـــذي هيـــأ للإيطاليين جواً من الراحة والدعة ورغيد العيش .. ساعد كثيـــراً في أنغماسهم في الدراسة والبحث والتذوق والتحـــرر والتفـــاؤل وتميزت إيطاليا بقيام حكومـــات مـــستنيرة أرتبطـــت بالـــصناعة والتجارة مثل أسرة مديتشي في فلورنـــسا .. وبـــاقي المـــدن .. وراحت تلك العوائل الحاكمة تتسابق في تشجيع الآداب والفنـــون وتدعيم التجارة والصناعة .

علوم العرب

وشكلت إيطاليا حلقة وصل ثقافية مهمة بين الشرق والغرب ، كما ذكرنا آنفاً ، وبشكل خاص في فترة الحروب الصليبية التي أتفق أكثر المؤرخين على تأثيرها الجلي في نقل مقومات الحضارة الإسلامية الى الغرب .. وتحديداً في مدينة جنوا الإيطالية .. التي كانت أكثر المدن بروزاً في هذا المجال حيث أقامت لها في كل من سوريا وفلسطين مراكز تجارية .. تسربت من خلالها علوم العرب ونظمهم الإجتماعية والحياتية الى إيطاليا أولاً ثم الى باقي الأقطار الأوربية .

جمال الطبيعة ومتع الحياة

ومن العوامل الإجتماعية التي أدت الى سبق إيطاليا في مضمار الحضارة .. كون طبيعة الأهالي فيها تميل للحياة

والجمال والتمتع وكرههم للحروب التي يتركونهـــا للمرتزقـــة .. وترافق ذلك مع رخائهم الإقتصادي .. وجمال الطبيعة الأمر الذي شجعهم على التذوق والإبداع .. فضلاً عن التبدل الذي حصل في حياتهم الإجتماعية ، بعد نفورهم من رتابة حياة الفلاح التي تتميز بالدورة الإقتصادية الطويلة فيما تعتمد أرباح عمله على الأقدار ، ويتسم عمله بالأجهاد حيث يستمر من طلوع الشمس الى غروبها .. وأقبالهم على حياة التاجر التي تتميز بقلة صعوبة العمل ، وله من الوقت ما يسمح له بتبادل الآراء مع الآخرين والقراءة والتنزه والتأمل .. بالأضافة الى أرباحه الطائلة المبنية علـــى حـــسابات السوق الواقعية .. وهكذا غلبت روح المدينة القائمة على التمتـــع بالحياة والأهتمام بالأنسان حتى سادت المدن الإيطالية .

اثار الرومان وعلوم الاغريق

أما من الناحية المعنوية .. فأن إيطاليا تعد مهداً للحضارة الرومانية القديمة وثقافتها التي أعطت التطور النهـضوي حقنـة معنوية كبيرة .. فلقد عادت أنظار الطليان الـى آثـار الرومـان الماثلة أمامهم ، تستوحي منها .. ثم أنتقلت الى آثار الأغريق التي تناغمت مع طبيعة الإيطالين تستنبط منها .. مما تحول الى حافز معنوي مهم لرجال النهضة .. وظهر تأثير ذلـك فـي أفكـارهم وآدابهم وفنونهم .

راسمال ايطاليا الرمزي

أما من الناحية الدينية .. فإيطاليا مقر الكنيسة الكاثوليكية وعاصمة البابوية وقبلة العالم المسيحي الغربي .. ومن ثم كـان الأصلاح الديني الكاثوليكي وتطوير الكنيسة قد أنطلق منها ..وما

يشكله ذلك من رأسمال رمزي يثير أعتزاز الإيطالين وأعتـــدادهم بأنفسهم .. ودرجت الأمم الأوربية على جبايـــة الأمـــوال الـــى عاصمة البابوية كألتزام ديني مقدس فكان ذلـــك مـــدعاة لـــبعض البابوات المستنيرين في أن ينفقوا من تلك الأموال على نشر العلم وأنشاء المكتبات وجمع المخطوطات وأقامة الجامعات بل وأنشاء المتاحف التي تضم تحف فنية رائعة ونادرة .. مما دفـــع هـــؤلاء البابوات في طريق المنافسة مع الكثير من الأمراء فـــي رعايـــة العلوم والآداب والفنون .

ازدهار الادب

وفي مجال اللغة والأدب .. فقد عُرفت إيطاليـــا بروعـــة طبيعتها التي أغنت لغتها الدارجة .. ولم يزدهر الأدب فيها حتى كتب باللغة الدارجة .. هذا التحول من اللغة اللاتينية الى اللغـــة الشعبية ، صار مصدر طاقة جياشة للابداعات الخلاقة فيها فـــي

حقول الفنون والآداب التي تفيض من مكنونات تنطوي على أحاسيس مرهفة سريعة التغير والتطور بخلاف النتاجات العلمية والتقنية التي تحتاج الى زمن طويل .

نوابغ الفن

نبغ الإيطاليون قبل غيرهم من الأوربيين في ميدان الفنون الجميلة .. وساهموا في عصر النهضة ، بنتاجات ذات قيمة فنية عالية .. أزدهرت تلك الفنون على أيديهم ثم أنتشرت الى بقية أنحاء أوربا ، وسار الفن من الأقتباس صوب الأبتكار متأثراً بروح العلم وبالحياة العلمية ، وتحرر من تقاليد القرون الوسطى .. فيما أستوحى من الفن الأغريقي والروماني .. وأنتهى الى نوابغ الفن الإيطالي العظام كدافنشي وأنجيلو.

وبهذا فقد سجلت إيطاليا قصب السبق بالنسبة لعموم أوربا في ميدان النهضة .. نتيجة للعوامل مارة الذكر .. وتعاضد

مقوماتها .. وتنامي تواشجها .. فقد قامت النهضة في إيطاليا قبل غيرها ثم ساحت منها الى بقية أقطار أوربا .

الفصل الرابع

النهضة التي نادت بامامة العقل ومجدت كرامة الانسان

إن البحث في مميزات النهضة الأوربية ومظاهرها مسألة جديرة بالاهتمام .. في وقت تمر فيه البلاد العربية في مرحلة مهمة من التحول والتقدم وبالتالي بات من الضروري أن نعرف أنماطاً مختلفة للتفكير ونماذج صالحة للتغيير القيمي في بلاد أوربا أبان عصر النهضة .. لعلنا نقتدي بعناصرها الصالحة لبيئتنا لإثراء عملية التحول النهضوي التي تحياها بلادنا .

بيد أن تحديد مظاهر النهضة الأوربية شيء لايخلو من صعوبة وعسر .. بل لا تخلو آراؤنا فيه من بعض التعسف وهو أمر لايمكن تناوله بدقه علمية متناهية .. ولا نطمح في أن نصل من ورائه الى أحكام مطلقة .. نعم كل ما نريد أن نعرفه هو مميزات النهضة في إطارها العام .. تلك النهضة التي نادت

بإمامة العقل ومجدت كرامة الإنسان ، مستنكرة نزوات العنصرية ، ومنددة بالإستبداد والطغيان . بالرغم مما شابها أحياناً من مثالب وما أفرزت في أحيان أخرى من دعوات فجة .. الا أن الحركة الإنسانية كانت هي أبرز أوجه عصر النهضة .. في إطار ثورة ثقافية وفكرية وعلمية ذات طابع متميز في التاريخ الإنساني . وفي كل حال يمكن أن ندلوا بدلونا في هذا المضمار بالتطرق الى ما نراه أهم مظاهر عصر النهضة ..

١. إن النهضة حصيلة ثقافية إنسانية في إطارها العام ..

ذلك أن تأثيرات الحضارات الشرقية سيما الحضارة العربية قد لعبت دوراً مهماً في كينونة وتطور عصر النهضة .. بل قيل أن الفارس المجلّى الذي اهتدت به أوربا للاستيقاظ من العصور الوسطى المقيتة ، هو تمثيلها لأفضل ما في التراثين العظيمين التراث الأغريقي / الروماني القديم والتراث الإسلامي

الذي كان بالإضافة إلى أصالته وإبداعه خلاصة للحضارات الشرقية القديمة ، وبعث بإضافات متميزة للتراث الإغريقي الثر .

٢. العلمانية والحرية ..

إن حركة النهضة كانت تمرداً على الكنيسة ومحاربة لسلطتها .. فالنهضة جاءت من خارج الكنيسة حيث أتسمت حركاتها بالعقلانية والاعتماد على رجال التجارة والحرفيين الذين أثروا نتيجة لنمو التجارة وتزايد الطلب على صناعات الحرفين .. كما اعتمدت النهضة وحركتها على سكان المدن الذين يفضلون مصالحهم على انتماءاتهم القبلية .. كما ان التاجر لايمكنه ان يتعامل الا على وفق مصالحه .. ويميل الى الحرية في حركته الاقتصادية ولايتصرف في ضوء عقيدة معينة .. الا اذا طابقت مصالحه ، وهكذا بنيت النهضة على اساس محاربة الهيمنة الكنسية على الفكر .. ومناهضة أستحواذ الأسياد على الثروات

ومنافحة انفراد الأمراء بالمجتمعات .. لأنها كانت تنشد حرية الرأي والفرد والتعامل .

٣. تعدد أزمان ظهور النهضة في الأقطار الأوربية .

إن النهضة لم تظهر في وقت واحد في كل أرجاء أوربا .. لأن تطور علاقات الإنتاج يتفاوت من قطر لآخر فضلاً عن اختلاف ظروف وعوامل أخرى ساهمت في تقدم النهضة في قطر ما وتأخرها في قطر آخر .. حيث نجد أن إيطاليا سبقت الجميع في التمهيد للنهضة ثم تلتها أوربا الغربية ثم بلاد البلقان وهكذا بقية أنحاء أوربا .. لكن يمكن القول أن الجميع قد ساهم في تعزيز مقومات النهضة .

٤. تعدد انساق النهضة .

لم تجر النهضة الأوربية على نسق واحد ، ولاسارت على وتائر متصاعدة متماثلة في الأقطار الأوربية المختلفة ، بل أختلفت بحسب البلدان ، وتفاوتت أنساقها بحسب الظروف ..

وحتى من ضمن البلد الواحد تارة يحصل تقدم وفي أخرى يكــون تراجع .. نتيجة لإزدهار تطور العلاقات والمظاهر الاقتــصادية والاجتماعية الجديدة أو أنكماشها . فايطاليا التي كانت مهد النهضة الأوربية ، و السباقة في مضمار التطور في عصر النهــضة .. نراها في زمن لاحق تتراجع فيها انساق النهضة بفعــل عوامــل معينة في حين تصاعدت انساق النهضة في غرب أوربا بحيــث خلفت إيطاليا وراءها في مضمار التقدم .

٥. تعدد أنماط النهضة .

إن تشابه المظاهر العامة للنهضة في أوربا لم يمنع مــن تفرد كل قطر ببعض المزايا وتبرزه فيها مــن جــراء ظروفــه المحلية .. والتي فرضت نمطاً معيناً من أنماط النهــضة شــكل ملامح تعطي سيماءاً متميزة لكل قطر على حدة .

فالنهضة في إيطاليا .. تعملق فيها الإبداع الفكري والأدبي ، ونبع فيها الخلق الفني والجمالي .. أما النهضة الألمانية فقد اتخذت طابعاً فكرياً عميقاً مس قضايا الكنيسة الكاثوليكية .

أما في فرنسا فجرى التأكيد على دراسة القانون الروماني ، وفي إنكلترا صار التركيز على القضايا الفلسفية والجمالية .

٦. دنيوية ثقافة النهضة .

في عصر النهضة جرى التأكيد على الطابع الدنيوي للعلوم والآداب .. فتبلورت نظرة جديدة فيها مؤداها ان الإنسان لم يخلق ليعمل لآخرته فقط كما هو الحال في القرون الوسطى حيث جرد الإنسان من قيمته الفردية في الحياة .. بل ليعمل لدنياه ويتمتع بجمال الطبيعة وقيمة الحياة .. والذي نظر لذلك هم الإنسانيون مفكرو عصر النهضة الذين غدوا واضعي الأسس الدنيوية لثقافة النهضة .

لقد أكد هؤلاء المنظرون على أهمية سعادة الإنسان في الحياة الدنيا .. حيث أكد لورينزو فالا بحماس (على أن هدف الحياة إنما هو السعادة .. وعلى الناس أن يصبوا إليها كونها إرادة الطبيعة نفسها) .. وهكذا أنصب عمل الإنسانيين على فهم الإنسان وما يحيط به وصولاً الى سعادته .. فكان ذلك عنصراً محركاً هاماً لكل علم ومعرفة جديدة .

٧ . موسوعية رجال النهضة .

لم يتخصص رجال النهضة في علم ما أو مجال فكري أو فني محدد بل كانوا موسوعيين يجمعون بين العلم والفكر والأدب والفن .. فأنجيلو الذي وهبته الطبيعة النبوغ بلا مكيال كان شاعراً ورساماً ونحاتاً ومعمارياً .. أما دافنشي فقد كان مجموعة نوابغ في شخص واحد وجمع بين العلم والهندسة والأختراع والرسم والنحت والرياضيات والطب وأما روفائيللو فكان شاعراً وفيلسوفاً وعالماً لاهوتياً ورساماً بارعاً . وأما كوبر نيكوس فأنه كان مفكراً

وعالما ضليعا في مجال الفلك ، درس القانون والطب والفلك . اما فقد كان شاعرا وعالما وبحاثة ايضا .. وكان بترارك قد درس القانون والحقوق في إيطاليا .. ثم شب شاعراً ويعد من مؤسسي اللغة الإيطالية الحديثة .. بلأضافة الى كونه مفكراً وثائراً . وميكافيللي لم يكن مؤرخاً وسياسياً فحسب بل كان أيضاً فيلسوفاً وأديباً بارعاً .

٨ . بعث التراث الأوربي الروماني / الإغريقي .

إن احياء التراث العلمي الإغريقي والروماني واكب عصر النهضة بل يعد من أهم مظاهرها .. لأن العقلية الأوربية شرعت بالتغير بعد لفظها لقيم العصور الوسطى واتجاها الى الاستيحاء من العقلية الإغريقية التي تميزت بحب الحرية والجمال .. وتمظهرت بالصدق والصداقة والنظرة الموضوعية والنزعة الإنسانية والتأمل الفلسفي .. كما استفادت من العقلية الرومانية

(اللاتينية) التي تميزت بالروح القتالية وأكسبتها صفات العــزم والحرية وحب النظام الصارم .

ومن الجدير بالذكر ان الفكر الإغريقي / اللاتينـــي ، كـــان متحرراً من الكثلكة (هيمنة الفكر اكنسي الكاثوليكي في العــصر الوسيط) .. وكان يهتم بالحياة وبالإنسان أكثر من أي شيء آخر . فاتجاه أوربا في عصر النهضة صوب احياء التراث القديم مـــا كان يبغي استنساخ الماضي والنوم بين أكتافه بقدر ما كان يعني ، أن استيقاظ أوربا كان بحاجة ماسة الى العناصر الإيجابية التـــي تمجد العقل والمنطق والقوة والنظام في ذلك التـــراث ولمحاربـــة أوهام وخرافت وجهل وضعف عصر الإقطاع .

٩ . ترسيخ أسس الآيديولوجية البرجوازية .

إبان عصر النهضة وبعد ظهور الطبقة البرجوازيـــة .. فأنها أخذت تلعب دوراً أساسياً في التغيرات السريعة التي شهدتها أوربا في كافة المجالات الاقتصادية الاجتماعية والفكريـــة .. ان

الفئة المثقفة من هذه الطبقة هي التي تحملت العبء الأكبر في قيادة دفة الحركة الثقافية والعلمية والفكرية المتعاظمة في عصر النهضة . ويمكن القول ان أفكار النهضة في مجملها تمثل البرجوازية النامية .. كما يمكن القول ان البرجوازية كانت أكبر نصر للاهتمام بالعلوم وخاصة الطبيعية وتطويرها لارتباط ذلك بمصالحها ومنافعها بالإضافة في صراعها مع الإقطاع والكنيسة الى العقل والتجربة والحرية .

١٠ . الاكتشافات العلمية والأختراعات التقنية .

طفقت أوربا في عصر النهضة تهدم جدران الجمود العلمي الذي ران عليها طيلة العصور الوسطى .. وذلك من خلال تغير نظرتها الى الحياة .. واطلاعها على التراث القديم بشقيه الاسلامي والأوربي ، وبذلك كشفت الغطاء عن معارف الأقدمين في الفيزياء والفلك والطب والرياضيات عند دراستها للآداب والعلوم القديمة .. وأفضى ذلك الى شيوع الروح العلمية في

المعاهد والجامعات الأوربية .. فاعقب ذلك تطورات علمية كبيرة في صناعة السفن والتقدم العلمي الهائل في الدراسات الجغرافيـــة والفلكية والرياضات .. وازدادت الاختراعات مثل اختراع البارود الذي أدى الى هدم قلاع النبلاء كذلك اختراع الطباعة الـــذي ادى الى انتشار العلوم وتقدمها . كما حصل تقدم كبير في ميدان الطب ، بالخصوص في مجال التشريح والفسلجة .

١١ . ثورية قيم النهضة .

إن افكار النهضة تمثل آيديولوجية الطبقة البرجوازية ، التي تتعارض مع قيم المجتمع الإقطاعي ، بل تحاربها محاربة لا هوادة فيها .. لذا اتسمت هذه الأفكار المؤسسة لقيم النهضة بطابع ثوري .. وأصبحت تمثل طموحات جميع الفئات والطبقات التـــي اتفق تغيير المجتمع الإقطاعي مع مصالحها الأساسية .

١٢ . التناقض في مظاهر معينة للنهضة .

كانت أفكار عصر النهضة تعبر عن تطلعات الطبقة البرجوازية .. لكنها تجاوزت جوانب معينة من تلك الأفكار لتعبر بشكل أو بآخر عن طموحات الفئات الاجتماعية الدنيا كالطبقة العاملة الحديثة .. بل قيل ؛ ارتبطت بعض هذه الأفكار في أحيان وان كان بشكل محدود بالكنيسة وبالأقطاعيين كذلك .. وكانت أفكارالنهضة تدعو الى التركيز على اللغات الدارجة ، في الوقت الذي تشجع الدراسات اللاتينية .. ومن بين متناقضات عصر النهضة ، انه كان يدعو الى التحرر الفكري من مدرسية العصور الوسطى ومن هيمنة الفكر الإسلامي .. في ذات الوقت الذي يهتم بالدراسات الكلاسيكية وإحياء التراث القديم .ورافق عصر النهضة بعض الضلالات مثل التنجيم والسحر حتى في قصور الأمراء والبابوات .. وفي نهاية القرن الخامس عشر وفي ظل تقدم واضح لمعطيات النهضة جربت جامعة باريس تكفير المنجمين ولكنها فشلت .

١٣ . ظهور الدول الأوربية الحديثة .

في أثناء العصور الوسطى كانت فكرة الإمبراطورية المقدسة مسيطرة على الأذهان .. وكانت الكنيسة الكاثوليكية تدعمها وتثبت أركانها .. غير ان هذه الفكرة ما عادت تلائم روح عصر النهضة .. في الوقت الذي أفلت فيه نجوم النبلاء والإقطاعيين ووهن عزمهم ، قويت سلطة الملوك المستبدين ، الذين عملوا على تقوية بلادهم وتقوية جيوشهم وأساطيلهم .. فيما استخدموا البارود الذي قضوا به على النبلاء والإقطاع .. في هذا الوقت تمت عملية التقارب والتحالف بين الملوك والبرجوازية .. وهكذا ظهرت دول أوربا الحديثة المستقلة .. بكياناتها الوطنية الواضحة كما في فرنسا وأنكلترا واسبانيا ..

١٤ . تكون اللغات الوطنية الأوربية .

قبل عصر النهضة كانت العلوم والآداب حكراً على فئات محدودة من المجتمع ، لمعرفة هذه الفئات اللغة اللاتينية . اللغة

الرسمية للعلوم والآداب – فيما حرمت بقية فئات الشعوب من هذه المعارف لعدم تمكنها من اللغة اللاتينية – ولكن مع عصر النهضة تغيرت النظرة الى الفرد كأهم عنصر في المجتمع يجب تيسير أمور الحياة لسعادته .. وهكذا جرى الإهتمام باللغات المحلية ، وكتب الأدباء بها وراعوا في كتاباتهم ذوق القاريء البسيط كما فعل رابلييه الفرنسي ودانتي الإيطالي وغيرهم كثير . وفي الجانب الآخر أخذ يقل عدد الذين كانوا يكتبون باللاتينية حتى أصبحت في عداد اللغات التراثية . فيما تبلورت اللغات القومية كالإيطالية والفرنسية والإنكليزية والالمانية وغيرها .

١٥ . رحلات الأستكشاف الجغرافية .

رافقت عصر النهضة رحلات للأستكشاف كجزء من الحركة التجارية المتنامية وأثر أحياء التراث العلمي وما عرف من نظريات في الجغرافي والفلك كانت تعبيراً عن روح المغامرة وتأكيداً للذات التي ماجت في صدور أبناء أوربا في كنف

التغيرات العميقة التي عصفت بأوربـــا . حيـــث غيـــرت هـــذه الأستكشافات المعرفة بالعالم وزادت من معارفهم حـــول الأرض والأستفادة منها . كما ادت الى اثراء أوربا التي نهبـــت ثـــروات البلاد المفتوحة وتأسيس حضارة جديدة فيها كما في الأميـــركيتين بعد تدمير حضارتها القديمة .. ثم ازدادت الموجات الاستعمارية الاوربية للسيطرة على العالم .

١٦ . الإصلاح الديني .

في نهاية القرون الوسطى بدأ التفكير في نقد الكنيـــسة .. غير انه في عصر النهضة أخذ يتطور الى حركة لها أثر كبير في المجتمعات الأوربية من جميع النواحي الديني والعقلية والسياسية والاجتماعية . ونتج عن ذلـــكَ تكـــون المـــذاهب البروتـــستانتية وانتشارها .. كذلك ظهر الإصلاح الديني الكاثوليكي وكان هدف حركة الإصلاح الديني محاربة هيمنـــة الكنيـــسة علـــى الفكـــر وسيطرتها على المجتمعات من خلال ترويجها الأساطير لتحقيـــق

منافع ذاتية كبيع صكوك الغفران فضلاً عن محاربة العلماء وتعريضهم للقتل والسجن بسبب آرائهم . كما استهدفت الحركة تنمية شخصية الفرد وتحرره وتحرر فكره من غيبيات الكنيسة التي تشل قدرته على التفكير والعمل .

هذه من أهم مظاهر عصر النهضة في أوربا الذي يمكن تحديده اجمالاً بين القرن الرابع عشر والقرن السابع عشر علماً ان هذا التحديد ليس نهائياً . في هذا العصر أخذت أوربا تستشرف آفاق العلم فبنت المدارس وأقامت الجامعات .. وراحت تشيع المعارف الإنسانيية .. وتؤكد قيمة الفرد وحقه في الحياة وتحسسه للجمال . وتبدى ذلك في حرية الرأي والتعبير وانتعاش الفنون والموسيقى والآداب ، وبلورة اللغات الشعبية ، وتقدم الصناعة والتجارة وتثوير الزراعة واستكشاف العالم الجديد ، والأهتمام بالعلوم والأختراعات ، والتغيير في وضع الطبقات في المجتمعات الأوربية ، وسيادة الروح العلمية ، وبداية عزل الدين عن الدولة

وظهور الحركة العلمانية ، وبداية وضع الأســـس الديمقراطيـــة لأنظمة الحكم .

الفصل الخامس

النهضة الاوربية والفنون الجميلة

كان الانسان مجرد كائن بيولوجي يشكل وجوده جزءا من الطبيعة لايمتاز فيها ولا يتناقص معها .. ثم انفصل عنها .. وشرع بالسيطرة عليها .. ومن ثم تكوين الجماعة التي اصبحت تشكل عين الانسان ، وتشارك في صياغة رؤيته للعالم . حتى ازدادت هذه الرؤية ايغالا في التعقيد بما اعتور حياة الانسان على الارض من تغيرات اجتماعية وتاريخية وفكرية ، وبما حقق من انجازات علمية وتقنية كان لها جميعا ابلغ الاثر في تكييف التحولات المستمرة للعلاقة الجدلية بين الوعي والواقع .

بمثل هكذا رؤية تحليلية راصدة لهذه القضايا / قضايا تتداعى اثارها في شتى المجالات المعرفية ذات الصلة بدراسة كينونة

الانسان / تتوزعها علوم كثيرة متجاذبة الاختصاص ؛ نذكر من بينها الفلسفة ، وعلم الجمال ، وعلم الاساطير ، وعلم الثقافات ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، وتاريخ الفن ، وعلوم الادب ، نعم بمثل هذه العلوم الانسانية ولا سيما الفنون الجميلة قامت اعمدة النهضة الاوربية بوجهها الانساني والجمالي الخلاق .

الفنون الجميلة

قام الايطاليون بمجهود كبير ، وفعال في ميدان احياء التراث القديم ، نبغوا كذلك في ميدان الفنون الجميلة ، واعطوا للانسانية ثمرات فنية لها قيمتها ووزنها ، بتلك الفنون التي ازدهرت بايديهم وانتشرت منها الى بقية انحاء العالم .

تحرر الفن (فن التصوير والنحت والعمارة في ايطاليا) من تقاليد العصور الوسطى ، واستوحى من الفن الروماني والاغريقي في العصور القديمة . ورغم بقاء الروح المسيحية ، الا انها واءمت بين نفسها وبين روح المجتمع الايطالي الجديد . وتاثر الفن كذلك

بالحياة العملية ، وسار من الاقتباس صوب الابداع والابتكـــار ، كما تأثر بروح العلم ، ودراســـة جـــسم الانـــسان والتـــشريح ، وأستوحى من دراسة الهندسة اللازمة لفن المعمار .

كبار فناني النهضة

وظهر بعض كبار المصورين ، ومن اشهرهم جيوتو Geotto (1266 ــ 1337) الذي كان مـــصورا ، ومهندســـا معماريـــا ، ونحاتا . وكان يمثل بالنسبة للتصوير ، ما كان دانتي يمثله للادب . وكان صديقا لدانتي ، الذي اوصى له ببعض صـــوره . ولقـــد حسن وسائل التصوير الفنية ، وادخـــل الـــى الـــصور عناصـــر الاحساس والعاطفة وقوة التعبير . ومن اشهر الصور التي رسمها صورة المسيح وقد فارق الحياة ، ومريم العذراء تحملـــه وهـــي جاثية ، وحوله بعض القديسات والملائكة ، وقد ارتسمت علامات الحزن والاسى على وجوه الجميع . وهو الـــذي مهـــد الطريـــق

لظهور عظماء المصورين مثل ليوناردو دافنشي ، وميشيل انجيلو ، وروفائيللو .

وظهر كذلك ليوناردو دافنشي Leonardo davinci (1452 ــ 1519) . وكان من اعظم رجال الفن في العالم . وامتاز باتساع الثقافة وتعدد الملكات . وكان مطلعا على العلم والطبيعة والكيمياء والميكانيكا . كما كان موسيقيا وشاعرا ونحاتا . وقد امتزج كل ذلك في نفسه ، فمزج العلم بالفن ، وبما اوحت به اليه الطبيعة . ومن اشهر اثاره الفنية لوحة ((العشاء الرباني)) ولوحة ((الموناليزا)) / ((الجيوكوندا))

اما ميشيل انجيلو Michel Angel (1475 ــ 1564) فقد اشتهر كذلك بتعدد الثقافات، واتساع الافق والمعرفة وبرع في التصوير والنحت والهندسة ، ونظم الشعر ، واشتهر بوفرة انتاجه ، وتعدد الموضوعات التي عالجها والمستوى الرفيع الذي وصل اليه ، وكانت تبدو في صوره الغموض والخشية من العقاب الذي

وعد به الاثمون فكانت لوحاته تصدر عن قلبه المتألم كصراخ او اعتراف بما كان يعاني من الألم .

اما روفائيللو Rrphael (1483 ــ 1520) ، فيمكن اعتبــاره اهم الفنانين الذين برعوا في فن الرسم في ايطاليا . ورغم انه قد توفي وهو لا يزال شابا ، الا انه اعطى من عبقريتــه ، وبــشكل خلد بها العبقرية الفنية الايطالية في فن الرسم بما خلفه من اثــار فنية رائعة . وقد امتاز فنه بالانسجام والتوازن ، وبقــوة الخلــق والابتكار ، ولقد اقتبس ، وتأثر وخلق وابدع بخاصة في رســم الطبيعة .

ومن اهم لوحاته ((عذراء الغراندق)) .. ولوحة ((مدرسة اثينا)) الموجودة في الفاتيكان .

اما فن النحت فقد وصل الى مستوى رفيع في ذلك العصر ، ولقد تأثر بالفن القديم خاصة وان كثيرا من الاثار كانت لاتزال باقية ،

وزاد الكشف عن كثير منها . فتأثر الفنانون بهذا التراث ، واخذوا عنه ثم ابدعوا بعد ذلك في تحفهم الفنية .

ومن اشهر رجـــال النحـــت دونـــاتللو Donatello (1386 ــ 1466) ، الذي تميز بطبيعته الثائرة ، وبقوة الخلق . ومن اثاره في النحت . تمثال القديس جيوفاني الموجود في فلورنسا . وتمثال قائد الجند البندوقي جتاميلاتا . ولاشك في ان دوناتللو قـــد مهـــد الطريق امام ميشيل انجيلو لكي ينحت بعد ذلك تمثال موسى .

واشتهر من رجال النحت فـــي ذلـــك العـــصر لوكاديللاروبيـــا Lucadella Robbia (1400 ــ 1482) ومن اهم اثاره نحت تماثيل الاطفال من المرمر . في بروز ، وهم يغنون ويرقـــصون ويعزفون على الالات الموسيقية ، وبشكل لم يعارضه فيه احد الى مثل هذه الدرجة من الابداع الفني .

اما ميشيل انجيلو .. فقد اكتشف نبوغه لورنزو العظيم فقربه اليه ، والحقه بمدرسة الفن التي انشاها باحدى حدائقه بفلورنسا . فكل

الاماني والاحلام والمحن والمصاعب التـــي احاطـــت بشخـــصه ووطنه ، ظهرت في اثاره الفنية ، وجعله ذلك في حالة عصبية ، اعطت اثاره طابعا من الالم والقوة والجمال الرائع . ومـــن اهـــم اثاره تمثال الشفقة pitie في كنيسة القديس بطرس في رومـــا ، يمثل المسيح في حضن امه ، وبين ذراعيها . بعد صلبه . ولـــه تمثال اخر شهير ، هو تمثال موسى الموجود في احد كنائس روما . وهو تمثال يبهر البصر ، رائع الجمال في تفاصيله . وهو مـــن اروع ايات الفن في العالم ، اذ انه تمثال كأنه حي ناطق معبـــر . ويقال ان ميشيل انجيلو ، بعد ان اتمه ، صاح به ان ينطق ، ثـــم سقط مغشيا عليه .

اما عن فن العمارة .. فانه كان الفن الجميل الوحيد الذي لم يندثر خلال العصور الوسطى .. وبخاصة الفن الروماني في ايطاليـــا ، والفن البيزنطي في شرق البحر المتوسط ، كما اضاف العـــرب اليه الكثير ، وابدعوا وتفننوا فيه، اما في غرب اوربا فانها شهدت

الفن القوطي ولما جاءت النهضة انعكس ذلك على فن العمـــارة . فادخلت الخصائص والرسومات التي كـــان الاغريـــق القـــدماء يتبعونها .

الفصل السادس

النهضة الأوربية وقضية الحرية 1

الطبيعة الانسانية مشتركة بين البشر بغض النظر عن العرق والدين والبلد والطبقة

(1)

إن التاريخ الإنساني يمثل سجلاً للصراع بين الظلمة والنور .. بين الإستبداد والتحرر .. بين الكرامة الإنسانية وتفتحها في رحاب الحياة لجميع البشر .. وبين الإنحدار الحيواني الذي يريد أن يتحكم بمصائر الخلق ، وينفرد بالمنافع ، متوهماً أن بإستطاعته أن يلغي الآخر أو يغيبه .. ناسياً أن ذلك يناقض مواهب الأحياء وعبقرية الحياة .

إن الفئة المستبدة التي تتمثل في شخص واحد غالباً ما تعمد الى كبت إحساس الجماعة بشخصيتها وتجييره لخدمة هذا الفــرد الذي إستقل بالأمر دونها – بفعل قوته .. وضعفها – ولقد عرف الإنسان هذا الصراع المرير بين الفرديــة المطلقــة والجماعــة المهمشة – على شكل إنتفاضات وثورات وتجويع وتقتيل وتعذيب .. الخ – منذ شعر بأنه كائن إجتماعي .. حتى العصور الحديثة ، بعد أن أصبحت الشخصية الإجتماعية مصدر القوانين والدساتير ، وصار للفرد حقوقه وحرياته في إطار الجماعة التي ينتمي إليها .

إن ما وصلت إليه الإنسانية اليوم .. من تثبيــت لأركــان الحرية .. وتشيد لأعمدة المعارف الإنسانية العظيمة .. وترســيخ لقيم المساواة والتآخي .. وكفالة العيش الكريم للجميع – رغم أن ذلك لا ينسحب بالضرورة على سائر شعوب المعمــورة – كــان نتاج كل العصور وصناعة كل الشعوب .. ((المشروعية، تقتضي الدخول في مقاربة ، التقريب بين الثقافات التي يــشي مظهرهــا

بتباعد الواحدة عن الأخرى لأن وجود حس مشترك بين الأفكـــار عبر – الكليات الإنسانية – شيء لا يستدعي التدليل عليه)) .

فأديسون الأمريكي مخترع الكهرباء ، قد إعتـــرف بتقـــدم الإمام علي بن أبي طالب عليه قائلاً : ((لو لا علي بن أبي طالب لما توصلت الى تجاربي)) .. وثمة مجال للقول بأن الإمام علي بن أبي طالب هو أول من أشار الى الطاقـــة الكهربائيـــة عنـــدما ضرب الماء بعصا كانت لديه قائلاً : ((لو شئت لإستخرجت لكم من هذا الماء ناراً)) ! ..

وهذا دانتي الشاعر الإيطالي العظيم ورائد النهـــضة الأول نهل كثيراً من أفكار المعري وإبن عربي في ملحمته الخالدة ((الكوميديا الإلهية)) .. الخ .

تعد أثينا أول مدينة تطلعت الى الحرية .. وكان ذلك فـــي عصر ((بركسل)) الذي سمى النظام المطلوب لحكـــم البـــشرية الديمقراطية ، وقرر أن المواطنين متساوون وأحـــرار يتمتعـــون

بالحقوق العامة وحق تولي المناصب ، ويعبـــرون عـــن آرائهـــم بصراحة وحرية إلا أننا يجب أن نستدرك بأن الأجانب والأرقـــاء لا علاقة لهم بهذه الحقوق . إن بدائية وسائل الإنتاج في العـــصر الإغريقي أستعيض عنها بالرق .. حيث قنن في إطـــار التقاليـــد الإجتماعية الموروثة التي تكاد تعطل العقول عن العمـــل خـــارج فضائها المعرفي .. حتى تمكنت من عقل أفلاطون الذي قبل في (جمهوريته) بوجود طبقة الرقيق بدون جدال .. وكذلك فعـــل تلميذه أرسطو الأستاذ الأول للعقل البشري .

وإذا كانت وطأة الظروف وما تنتجه الضرورة القيمية ، قد ساقت التاريخ دون أن تمكن الإغريق من أن يلغوا نظام الـــرق ، فإنهم قد حسنوا وضع الرقيق قياساً الى زمانهم .. يقول البير بابيه في كتابه ((تاريخ إعلان حقوق الإنسان)) :

((حتى لنرى بعض الأرقاء العمومين قـــد أصـــبحوا مـــوظفين حقيقيين .. كما نرى آخرين يزاولون المهن في حرية وذلك بشرط

واحد هو أن يدفعوا أجزاء من ربحهم لسيدهم ذلك السيد الذي لـــم يعد له عليهم حق الموت والحياة فالعبد يحميه القانون الإغريقـــي في شرفه . ولكن نظام الإسترقاق بالرغم من كل هذه الإصلاحات قد ظل قائماً)) .

(2)

وعرفت روما معنى الديمقراطية ، وشهدت صراعاً مريراً في سبيل المساواة وتحقيق الحرية وقامت فيهـــا الثـــورات تلـــو الثورات .. حتى قامت الثورة التي ألغت النظام الملكي وأبدلتـــه بالنظام الجمهوري .. ولكن الى حين .

وإشتهر من بين الثائرين الرومان ((كانليوس)) الذي هاجم نظرية الفصل بين الطبقات الإجتماعية ودعا الى المساواة ، وأكد بأن الشعب وحده من يملك السيادة ، وزعق بوجوه الحكام قائلاً : ((وفي النهاية ، من يملك السيادة ؟ أ أنـــتم الـــذين تملكونهـــا أم الشعب الروماني ؟ وعندما طردنا الملوك هل كان ذلك لكي نقـــيم

سيطرتكم محل سيطرتهم ؟ أم كان لكي نحقق للجميع الحرية وسط المساواة . يجب أن يعطى الشعب الروماني الحق في أن يــضع التشريع إذا أراد)) .

نرى في الوقت الذي طالب ((كانليوس)) لجماهير الشعب بالحرية وطالب بمساواتها بالأشراف في الحقوق والواجبات ، فإنه أستثنى طبقتي العبيد والمعتقين .. ولا عجب في ذلك إذا ما عرفنا بأن عباقرة الفكر والفلسفة والإصلاح بله الأنبياء ، قــد وطنــوا أنفسهم على قبول نظام الرق في مجتمعاتهم القديمة .. بالرغم من دعواتهم الكريمة الى الإخوة الإنسانية بغض النظر عــن اللــون والعنصر والدين والبلد والطبقة .. الخ .

وبعد أن حققت روما إنتصارات كبيرة علــى قرطاجــة .. بجهود ودماء أبناء الشعب ، راحت الطبقة المترفة المتــسلطة ، تزداد ثراءً .. فيما أخذت تتكل بالشعب تتكيلاً فضيعاً .. وتــسوقه الى سعير الفاقة ورمضاء البؤس..فثارت ثلة من هؤلاء التعساء ،

تنشد للشعب حق الحياة ، وإنتفض الثائر الروماني((تيبريوس)) ، ناطقاً بإسم هذه الفئة المعوزة بلهجة مجلجلة .

((ما هذا ؟ للوحوش الضارية مآو تلجأ إليها وأولئك الذين يريقون دماءهم من أجل إيطاليا لا يملكون غير الهواء الذي يستنشقونه ، فلا سقف يظلهم ولا مأوى ثابت يسكنون إليه ، بل يهيمون على وجوههم في الأرض هم ونساؤهم وأطفالهم ! أنهم لا يحاربون ولا يموتون إلا لكي يغذوا بذخ وإسراف قلة من الناس يسمونهم سادة الأرض ، ومع ذلك لا يملكون من حطام تلك الأرض حفنة من تراب)) .

فإنقضت الطبقة الغنية على زعماء الثوار وأجتثهم من جديد الأرض .. فصرخ أحد الثوار ((كايوس)) قبل اعدامه قائلاً :

((وهل تخطئون عندما تقتلوني ؟ إنكم بهذا القتل ستنزعون من جوانبكم ذلك السيف الذي أغمدته فيها !)) وراح ثائر آخر هو

((ماريوس)) يندد بمفاخرة الأشراف بعظمة أجـــدادهم ويثلـــب تبجحهم الزائف قائلاً : ((أنهم لا يمسكون عن الزهو بأجـــدادهم كلما تحدثوا أمامكم وأمام مجلس الشيوخ ، وهـــم يظنـــون أنهـــم بالحديث عن أعمال أجدادهم يضفون إشراقاً على أسمائهم ، بينما الأمر على عكس ذلك ، فكلما كانت حياة الأجداد أكثر إشراقاً كان جبن الأحفاد أعظم خزياً)) .

يمكن القول أن تقدماً نسبياً قد حـــصل فـــي ظـــل الحكـــم الجمهوري في مضمار الحرية والمساواة .. لكن سرعان ما تمكن النظام الإمبراطوري الروماني من إسقاط الجمهورية وإفشال ذلك التقدم .

وفي تاريخ الرومان صفحة مشرفة لا بأس مـــن إضـــاءتها وسط ركام الظلام المدلهم والجور المكلكل .. تلك الصفحة تنبيء عن حرية المعتقد الديني ، فقد جاء في كتاب القـــانون الجزائـــي الروماني هذه الفقرة : ((ليس لأحد أن يطلب منك حـــساباً عـــن

إيمانك . والقانون لا يجبر أحداً على مزاولة عبادة ما .. فالرجل الإباحي الذي ينكر وجود القضاء يعيش بسلام الى جوار المتعبد المتزمت)) .. أما ما إشتهر في التاريخ من دعوى إضطهاد قياصرة الرومان لأصحاب الديانة المسيحية في عهدها الأول .. فليس الأمر كما راج .. لأن سبب ذلك الإضطهاد يعود الى أن المسيحيين كانوا ينتقصون من ديانات الرومان ، ويعيبون آلهتهم ، مما يوقعهم تحت طائلة القانون الروماني الذي ((يبيح للناس أن يؤمنوا بما شاءوا شرط ألّا يسيئوا الى معتقدات الآخرين)) .

إن الأنظمة الرومانية ، كسائر الأنظمة الإجتماعية في العالم القديم .. قد أذاقت العبيد صنوف العذاب وألوان التنكيل بما لا يطاق .. فيضطرون الى الثورة .. والنهاية معروفة من قمع وإرهاب وقسوة وتقتيل ، حيث يقدمون على الموت الذي كان بالنسبة إليهم أشهى من الحياة وأرحم .

يقول المفكر سلامة موسى في كتاب الثــورات .. واصــفاً إنتفاضات العبيد بروما : ((كان الإسراف في القسوة ينبه العبيــد أحياناً ويذكرهم بأنهم كانوا من البشر ويمكن أن يكونوا منهم لذلك كانوا يثورون)) .

وهذا ما نجده في حركة ((سبارتكوس)) في إيطاليا حوالي سنة 73 ق . م .. حين فر مع سبعين عبداً ، وكانوا خليطاً مــن الزنج والبيض والسمر ومن جنسيات مختلفة وشرع يحض العبيد على الثورة ، فإجتمع له نحو مائة ألف عبد .. غيــر أن هــؤلاء المناكيد الأغرار راحوا يعيثون وينهبون .

تطلع ((سبارتكوس)) الى تحرير العبيد .. وإن يكّون منهم جيشاً جراراً يمزق به الدولة الرومانية .. فيما فكر في إقامة دولة جديدة لا يكون لنظام الرق فيها مكان .. لكن أتباعه قد خيبوا أمله .. وفشلت الثورة .. لتبلد هؤلاء الرقيق وعدم دربتهم على الحرية بل أن فداحة ما ورثوه ولاقوه من ظلم ممتد قــد صــادر مجــرد

تفكيرهم بالمستقبل .. غير أن دروب الحرية لا تعدم سالكيها ، عندما نهض ثائر آخر ((ساتر نينوس)) الذي دعا الى وحدة الجنس البشري المبررة من الطبيعية : ((إن الطبيعة مشتركة بين الأحرار والعبيد)) أما ما يراه الناس من إختلاف بين البشر تمويهاً على أساس الأجناس البشرية فإنه من صناعة المستبدين بالأمر والمحتكرين للمال .. لأن هؤلاء المرتزقين الجائرين لا يستقيم لهم البذخ والترف والجاه إلا بذلك .. بيد أن فكرة الحرية قد أصيبت بنكسة مروعة مع دخول أوربا في فترة العصور المظلمة الوسطى .

(3)

لقد إزداد الإستبداد السياسي المطلق في العصور الوسطى (ق 5 م – ق 15 م) وإستفحل النظام الطبقي الآثم وأوغل التعصب الديني في وحشيته الى حدود كارثية .

كان الملك يقيم سلطانه بإسم الحق الإلهي .. ويقسم المجتمع الى ثلاث طبقات ، الأشراف ، ورجال الدين ، والشعب المحروم .. وكانت القوانين تحمي الأشراف ومن يندرج في طبقتهم من نبلاء وأسياد وإقطاع وملاك ، رغم إتصافهم بالإنحلال والتفاهة واللصوصية .. أما رجال الدين فقد كانوا يفتون الناس بضرورة الخضوع للأمر الواقع والتسليم لإرادة الأشراف ، ويروجون بأسلوب مزيف لمقولة (الأرض فانية والحياة زائلة) .. في الوقت الذي ينغمسون مع الأشراف في كل ما لذ وطاب .

أما نظام الرق .. فقد كان الأسياد في هذه الأعصر يمدون له في الغي .. حتى إستحدث نوع جديد من الرق هو نظام التبعية والذي يميز التابع عن العبد .. بأن يبيح للتابع الزيجة والإنجاب فيما يحرم العبد من إمتياز كهذا .. غير أن هذا الإمتياز لا يمنع الأسياد من المتاجرة بالتابع ولا من إنتزاع أطفاله وزوجته منه متى شاؤوا .

يخبرنا التاريخ بأن أكثر رجال الدين في أوربا (لا كلهم حتى نكون منصفين) .. كانوا يلعبون أدواراً تبريرية غاية في الخطورة على المجتمعات .. حيث يبررون للحاكم المستبد أفكاره وقوانينه وأفعاله مهما كانت شريرة ودنيئة .. وخطورة فعلهم هذا متآتية من أكسابهم جرائم الحاكم بعداً شرعياً بصفتهم الناطقين بإسم الآله على الأقل هذا الرداء الشرعي يشكل أداة فاعلة بيد الحاكم لألجام خصومه أو للتخلص منهم مهما كانوا شرفاء ووطنيين .. هذا أحد رهبان مدينة (أنجيه) في فرنسا .. يفسر ويبرر نظام الرق بهذه الكلمات التافهة : ((أن الله قد أراد أن يكون بين البشر سادة وتابعون حتى يلزم الأسياد تبجيل الإله وحبهم له . ويلزم التابعون تمجيد أسيادهم وحبهم لهم)) .. ويقول المؤرخ الفرنسي لاشير : ((والواقع أن جميع الأسياد في القرون الوسطى ، سواء أكانوا من رجال الدين أو من غيرهم ، قد صاروا على نهج ما عبر عنه هذا الراهب من آراء)) .

وفيما يخص حرية الفكر والمعتقد في هذه العصور فقد كانت مصادرة تماماً من قبل الحكام ورجال الدين الذين كان شعارهم التقتيل والتحريق في الساحات العامة لكل من يخالفهم ، ولو بالظن فيما يعتقد . وقاد الكثير من ملوك أوربا حملات عسكرية . أعلنوا أن غايتهم منها هي تنصير الشعوب المفتوحة عنوة . لا بل اصدر أحد هؤلاء الملوك فرماناً يعدم بموجبه كل من لم يتنصر .

وهكذا شّرعت القوانين التي تعد حرية الفكر جريمة تعاقب بكل قسوة القائلين بها .. ثم أنشئت محاكم التفتيش سيئة الصيت .. فتولى رجال الدين شؤونها ، بصفتهم حماة الدين .. الذين يقررون قتل أو حرق كل من تسول له نفسه المناقشة في المعتقدات الدينية .. ويلقى نفس المصير كل من حملت بحقه ولو وشاية مفتعلة .. يفعلون ذلك وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً بدفعهم شر الأحرار

عن المعتقدات المنسوبة زوراً الى الدين المسيحي .. رغم أن السيد المسيح يقول ((أحبوا أعدائكم كأنفسكم)) .

مهد الملك روبير لقيام محاكم التفتيش ، ففي سنة 1022 م شهده الناس يحرق خمس عشرة هرطوقاً فرنسياً في مدينة أوليان .. ثم أنشئت وبشكل رسمي في عام 1183 حيث تم إتفاق يقضي بتأسيس هذه المحاكم البشعة .. والتي ظلت تعمل فلولها حتى القرن التاسع عشر .

لم يسلم بلد أوربي من فجائعها وفظائعها .. إلا أن إسبانيا كان لها النصيب الأوفر من أهوالها .. ففي القرن الخامس عشر ، عرف تاريخ إسبانيا ثلاثة حقراء ، هم الملك فرديناند ، وزوجته إيزابيلا والراهب توركيمادا الذي كانت زوجة الملك تعترف بين يديه .. فإنتهز شغفها بقداسته وطلب منها أن تستأصل جذور الهراطقة ، فأجابت طلبه وأوكلت إليه مهمة إنجاز ذلك .

كان فرديناند وحرمه المصون يأمران محاكم التفتيش بحرق الكفار ومصادرة أموالهم وصبها في خزانة الملك وزوجته .. أما توركيمادا .. فقد وصفه أحدهم قائلاً ((كان توركيمادا يسر ويبتهج حين يسمع عظام الناس تتكسر وتتمزق وهم يتلوّون من الألم وإذا كان هناك من يريد الأضرار بجاره فما عليه إلا أن يهمس في آذان هؤلاء الظالمين أنه كافر ، وسرعان ما يرسلون به الى السجن ، ويعذبونه . ويحكمون عليه بالحرق . وعندما تقوم النار بعملها ، يستولون على ما يملك فيتحفظون ببعضه لأنفسهم ، ويرسلون الباقي الى روما)) .

وهكذا أحرق هؤلاء الثلاثة الآلاف وإغتصبوا ثروات المنكوبين .. ولا تعاد الأموال المصادرة الى أصحابها المتهمين حتى وإن ثبتت براءتهم . ولما بلغ السيل الزبى ثار أحد القساوسة الطيبين مستنكراً هذه الأعمال الإجرامية ، فما لبث توركيمادا أن أحرقه .

ومن ضحايا محاكم التفتيش العالم برونو الذي أحرق عـــام 1600 م لأنه أصر على ماقاله كوبر نيكوس ، ولم يتراجع كمـــا فعل غاليلوا فنجا من الحريق .. أصر برونـــو علـــى أن الأرض تدور ، وإنها ليست مركز الكون .. فنسب الى الكفر والهرطقـــة وسيق الى النار التي لابد أن إنحنت إجلالاً لروحه الطاهرة وهي تصعد الى بارئها .

الفصل السابع

النهضة الأوربية وقضية الحرية 2

حركة الاصلاح الديني بداية ضرورية باتجاه عالم الحداثة والحرية

(4)

أترعت العصور الوسطى في مراحلها الأخيـــرة ، بـــروح إقطاعية مغرقة في الطبقية ورانت عليها كتلكة شديدة التعصب .. تبلورتا الى نزوع سار أدواراً وتنقل أطواراً كـــي يمنـــع الخبـــز والحرية عن الشعب .. ويعاقب بالقتل حرقاً من يطالب بهما .

غير أن الحياة لم تنطفيء وإن تضاءل وهجها .. وإن من البشر من لم يستسلم وإن إمتهنت كرامـــة الكثيـــرين ونكـــل بالثائرين وأقعى آخرون .. لكن أباة الضيم راحـــوا .. يرفعـــون مشعل الحرية .. ويجلون الحقيقة والعلم من بين ركـــام الباطـــل

والخرافات .. ويمهدون الطريق السوي للخلاص وإنقاذ الإنسانية من مهاوي وظلم قوانين حكام ذلك الزمان وزبانيتهم من السادة ورجال الدين .

ولا تسأل عما كان يتجرعه هؤلاء المتمردون على الظلم ، وعشاق الحرية من غصص ومآس .. فالشاعر الفرنسي ((فرنسوا فيللون)) .. قد صدر بحقه أكثر من ستين حكماً مختلفاً ، تراوحت بين النفي والسجن والتعذيب ، والقتل بأشكاله المتعددة ليس أعلاها الإعدام شنقاً حتى الموت .. بيد أنه أفلت من قبضات ظالميه وعاش مشرداً وهو ينشد المساواة والحرية والحب للجميع .

والراهب الإنكليزي الدكتور جون ويكليف .. فقد صارح الناس بآرائه في القرن الرابع عشر ، تلك الآراء التي تهاجم اللاهوتين المترفين على حساب حاجة الشعب وعوزه .. فيما دعا الى تكوين ((رأي عام)) في إنكلترا . كما طالب بتعليم الشعب

المحروم .. فكثر أتباعه وإزداد أنصاره .. ولكن رجـــال الـــدين وصموه بالهرطقة ، وحاكموه وقرروا التخلص منه حرقاً بالنار . غير أنه نجا بإعجوبة .. وإذا تعسر عليهم حرقه حياً . فقد أشفوا صدورهم . عندما تيسر لهم بعد أربعين عاماً على وفاته ، من أن يستخرجوا عظامه وهي رميم ليحرقوها رماداً تذروه الرياح .

ومن بين هؤلاء الثائرين المفكر الهولندي (هرمـــان فـــان ريزويك) .. الذي أعجب بمذهب أرسطو ومـــذهب الفيلـــسوف العربي إبن رشد ودعا الى إعتناق نظريتهما في أصـــل الوجـــود وكان يقول : ((إن أعلم البشر أرسطو ثم شارحه إبن رشد ، وهم أقرب الى الحقيقة ، بهما إهتديت وبفضلهما رأيت النـــور !)) .. إتهم الراهب العظيم بالهرطقة وأحرق في مدينـــة لاهـــاي عـــام 1512 .

أما الثائر العظيم ((سافونا رولا)) الذي لقب برمز الحرية والثورة ، ومجدد الإنسانية .. فقد ترك من بصماته الأثر الكبيـــر

على حركات الإصلاح بعده .. فيما إستلهمت الثــورة الفرنــسية الكثير من أفكاره وجسدتها في مبادئها الإنسانية الرائعة .

حارب هذا المفكر الخرافات والخزعبلات التي راجت فــي العصور الوسطى ولما تزل فاعله في عصر النهــضة .. وراح يصب جام غضبه على رجال الدين المتخمين والــذين يعيــشون على كدح الشعب وعرقه . كما هاجم نظرية الجبر .. وأكد بــأن الإنسان حر الإدارة .. طاف فلورنسا ومدن إيطالية أخرى منبهاً الشعب الى ضرورة إستعادة حقوقه الــسلبية وإســترداد حريتــه المسحوقة من خلال تقويض عروش الحكام المستبدين ، فلاقــت دعوته الكريمة هذه قبولاً عاماً . وإلتف حوله الشعب الذي أطاح بحكومته الأوتوقراطية المستبدة ليقيم محلها حكومة ديمقراطية في فلورنسا .

يصف سافونا رولا الحكومة بقوله : ((الحكومة هي بمثابة الأب بالنسبة للشعب)) .. ودعا الى فــرض الــضرائب علــى

ممتلكات الأشراف وهي دعوة غير مسبوقة في إيطاليا ، كما عالج مسألة الربا الفاحش .. وطالب بإلغاء الضرائب والقروض الإستبدادية ..

فشن البابا إسكندر بورجيا حرباً لا هوادة فيها على سافونا رولا وإصلاحاته وإستقلاليته .. عندما ساند عائلة مديتشي الحاكمة السابقة لمدينة فلورنسا للقضاء عليه ، حتى إذا فشلت أرسل البابا قواته للإطاحة به وبجمهوريته الديمقراطية .. غير أنه رد على أعقابه مهزوماً .. فأعاد الكرة هذه المرة من طريق أرشائه وإبتياع ضميره حيث عرض عليه قبعة الكردينالية ، لكن الراهب الثائر .. إنتفض ورفض .. فشاعت أخباره في أوربا مما أثار إهتمام الناس بآرائه وأخذوا يراسلونه .. فيما جعل بعض حكام أوربا يتوددون اليه . ورد المفكر الثائر على البابا قائلاً ((وماذا جرى إذا كنت إقترحت سن قوانين صالحة لرفاهية الشعب

وحريته ؟ أن أولئك الرجال يرمونني بالحجارة لأنني قمت بعمل طيب)) .

ولما أعلن البابا قرار حرمان سافونا رولا .. كتب الأخير قائلاً : ((ولماذا هم ثائرون علي في روما ؟ أتظنون أن ذلك من أجل الدين ؟ كلا ! إنهم يحاولون القضاء على حكومتنا ويعملون على بسط طغيانهم علينا)) . فأحنق البابا عليه وهدد فلورنسا بإصدار قرار الحرمان ضد الدولة إذا لم تسلمه الراهب الثائر .

وفي لحظة من لحظات الخور النفسي والدناءة البشرية سلمت فلورنسا منقذها ومصلحها وعظيمها الى أيدي جلاديه .. الذين حين إستنطقوه قال ((لقد حاربت الطغيان ودافعت عن الشعب)) .. ثم أودع السجن وعذب وحوكم أكثر من مرة .. ولكنه أبدى من صنوف الشجاعة ، وشموخ الأنفة ما جعله يستحق لقب نبي عصر النهضة ..

يقول حسن عثمان في كتابه عن سافونا رولا : ((يعتبر سافونا رولا من أوائل من دعوا الى الفكر الأصيل وأدركوا أن الجنس البشري يوشك أن يدخل في عصر جديد . ولا يجوز لنا أن نخلط بين عصر النهضة ، عصر الثورة والإنقلاب ، وبين الحضارة الحديثة التي ظهرت بعد أن هدأ المرجل وإستقامت الأمور . لقد كان ممن جذبوا الناس وراءهم في حياتهم ومماتهم ، ومزقوا أستار الظلام وإذا كانت فلورنسا لم تدرك خدماته من ناحية إصلاحاته الدستورية وإتجاهه الديمقراطي ، ورأت من مصلحتها في وقت ما التخلص منه ، وهكذا حطمت أحد مشيدي صرح الحرية فيها ..)) .

ثم أوثقوه .. وأثقل بالأغلال وسيق الى المحرقة .. وألقي برماد جسده في النهر .. ولم يحدثنا التاريخ عن صوت إرتفع للدفاع عنه ، أو دمعة ذرفت حزناً عليه ، من أهالي فلورنسا الذي

نذر حياته في سبيل قضيتها .. فيما كادت فلورنسا أن تتخذه نبيـــاً !!! .

(5)

إن عصر النهضة الأوربية قد ولـــد فـــي رحـــم أخريـــات العصور الوسطى .. له فيها جذور كما أن له بذور في العصور القديمة .. فلقد عرفنا التصاعد في المد الإنساني بإتجاه الحرية منذ هاتيك الأعصر الموغلة في القدم حتى فجر النهضة .. والعصور الحديثة ، حتى تمكن إنسان الحضارة اليوم من إعـــلان حقـــوق الإنسان .. وما اصح ما قاله المفكر الفرنسي باسكال بهذا الصدد ((يجب أن ننظر الى سلسلة البشر خلال عصور التاريخ كأنهـــا رجل واحد يعيش أبداً ويتعلم بدون إنقطاع)) .

لقد خرج الإنسان في أوربا من قمقمه بفضل جهود إنسانية سابقة .. وتوج ذلك في القرن السادس عشر حين أعلن بالضرورة تفوق النهضة الأوربية وبزها لسائر الشعوب في العالم .. وكـــان

فجر النهضة قد دشن في إيطاليا ، فيما تنفس صبحها في فرنسا .. ثم أشرقت شمس ضحاها على اوربا الغربية .

ثم جاءت الإكتشافات العلمية التي صارت تحرر العقول من سلطان الخرافات والشعوذات .. ناهيك ما أنتجته إيطاليا وفرنسا من المفكرين والفلاسفة والأدباء والفنانين الذين تصدوا للظلم والإستبداد .. وراحوا يعملون من أجل تصحيح الفكر البشري .. وجعله في خدمة الإنسان .. كل ذلك أعطى هذه الأولوية لهذين البلدين في مضمار الإنبعاث .. بالإضافة الى عوامل أخرى من مثل تقدم بعض الصناعات ونشوء حركة التجارة والتوسع في بعض المدن .. الخ .

ولما كان التعصب الديني .. يشل حرية التفكير ، ويقف حجر عثرة أمام كل محاولة ترمي الى تحرر الإنسان من الإستعباد ، ويكبت أي تطلع للكشف عن أسرار الطبيعة وتوظيفه

في خدمة الإنسانية .. لذلك كانت حركة الإصلاح الديني .. بداية موفقة بإتجاه عالم جديد في تاريخ اوربا ..

ولقد مر علينا بأن سافونا رولا قد مهد لهذه الحركة .. وقدم نفسه قرباناً دونها إلا أن نتائجها لم تثمر إلا في ألمانيا على يد الدكتور مارتن لوثر .. الذي شجب ما تقوم به البابوية ومريدوها من تدجيل من خلال بيعها لصكوك الغفران .. لإبتزاز أموال الناس..وإثراء الكنيسة إثراءً فاحشاً،فضلاً عن تشجيعها على إنحلال الأخلاق وفسادها من خلال إطلاقها حرية الآثام والجرائم.

كتب الراهب الثائر مارتن لوثر وثيقة وعلقها على باب الكنيسة .. فهرع الناس الى قراءتها .. ((إن اللذين ندموا على ما فعلوه من آثام وكانوا في ندمهم صادقين ، واللذين أقنعوا ضمائرهم بضرورة الكف عن الذنوب منذ الآن ، نالوا المغفرة كاملة ، وليس بهم حاجة لوثائق الغفران)) .

فغضبت السدة البابوية .. وأسرع رسول البابا الى إنتــزاع تلك الوثيقة .. وأحرقها في حفل عام وهو يصيح بلسان مندلق ((سنحرق هذا المارق – مارتن لوثر – كما أحرقنا هذه الوثيقــة)) .. وهتف معه رهبان ألمانيا : ((هذا المارق يجــب ألا يعــيش لحظة واحدة)) .

لم يأبه لوثر بالخطر المحدق به .. وإستمر يهاجم رجــال الدين الأوغاد ويسفه بيع صــكوك الغفــران .. فتكــاثر حولــه المولعون بآرائه وراحت كتبه تنتشر وراح الناس يتحدثون بها .. وهم يستشعرون صبا الحرية يمر وئيداً يلاطف أنفاسهم ، وأحسوا من أنفسهم قوة يمكن ان تواجه طغيان المستبدين يوماً .. لكــن هؤلاء الأحرار عدوا جميعاً من الزنادقة المارقين .. فإذا بالملوك تشحذ سيوفها .. ورجال الدين تصدر فتاواها .. ومحاكم التفتيش تلهب نيرانها .. ففي ألمانيا وإسبانيا وهولنــدا ، أصــدر شــارل الخامس بلاغاً جاء فيه : ((ليس لأحد أن يطبع ، أو ينــسخ ، أو

يحفظ ، أو يبيع ، أو يشتري ، أو ينشر في الكنائس أو الشوارع أو في أي مكان آخر ، أي كتاب من كتب مارتن لوثر)) .

بدأ هذا الملك سفر جرائمه ضد حرية المعتقد والرأي بحرق راهبين ثارا على تعاليم الكنيسة في عام 1523 م .. حتى ناهز عدد الذين قتلهم خلال سني حكمه مائة ألف أو يزيدون .. ولعل من أعجب ما أصدر هذا الملك الطاغية هذا المرسوم : ((إذا أنكر هرطوقي أنه احد الهراطقة وعاد الى حضيرة الإيمان ، لا يحرق بالنار ، بل يرحم ويقتل بالسيف ! .. إذا أبدت إمرأة الندم على الهرطقة وعادت الى حضيرة الإيمان ، لا تحرق بالنار بل ترحم وتدفن حية)) .

ولما مل شارل الخامس من النهب والسلب والقتل أسند عرشه الى إبنه فيليب الثاني الذي فاق والده في إضطهاد الشعوب الأوربية والتنكيل بها وإرهاقها بالضرائب التي لا يمكن أن يتصورها عقل .

لكن لم يفارق أطياف هذه الشعوب .. نزوعها الى الحريـــة .. وإن كان السير في هذه الطريق محفوف بالحديد والنـــار لـــذا ثارت مدينة ((ليدن)) الهولندية .. فحاصرها الطاغية بجيوشـــه المسعورة .. غير ان ابناء المدينة صمدوا له ودافعوا عن مدينتهم بضراوة فإضطر الى مداهنتهم ووعدهم بالعفو إذا هم إستسلموا له .. بيد أن هؤلاء الأحرار رموه بشعلة وهاجة من مشاعل الحرية لفحت وجهه النزق صارخين به : ((سنحارب من اجل الحريـــة حتى الموت . وإنه وإن لم يبق منا إلا طفل واحـــد إذن يحـــارب دون الحرية)) . فإغتاط الطاغية وأمر بإنهاك الأهلين حـــصاراً وجوعاً أو ينزلوا على رأيه .. فيما إزداد هؤلاء الأهلـــون آبـــاء وأنفة وتحدياً .. ومات الرضع على صدور أمهـــاتهم .. وملئـــت الشوارع بجثث الموتى .. وإنتشرت الأوبئة الفتاكـــة وصـــارت المدينة جحيماً لا يطاق .. لكن الأحرار ما برحوا عـــن حـــريتهم بديلاً إلا حتوفهم .. حتى إذا ما تقطعت بهم السبل وعلمـــوا أن لا

ملجأ من الموت إلا إليه أو الى الذل ، وطنوا أنفسهم على الموت الذي لابد منه ، وقرروا أن يعلموا الإنسانية درساً في الحرية .. وإن يتنسموا الحق والحرية وإن كان من خلال المـــوت فهـــدموا السدود التي تمنع عنهم مياه المحيط .. فما لبثت سورات الأمواج أن أغرقتهم هم وأعداءهم الغزاة .. فأي ثمن دفع أهل ((ليدن)) من أجل البشرية وأية صفحة مشرقة خط سكانها في سفر كفـــاح الإنسان في عصر النهضة . أما هذا الطاغية فيليب الثاني .. فلم أجد في وصفه أفضل مما قاله محمد الغزالي في كتابه ((الإسلام والإستبداد السياسي)) إذ يصف الطغاة في الشرق زملاء طغـــاة الغرب قائلاً : ((إن الحكام المستبدين كالحشرات القذرة لا تعيش أبداً في جو نظيف ، ولا تنصب شباكها للصيد والنهب إلا حيـــث الغفلة السائدة والجهالة القاتمة . وإن عقول المستبدين لا تعـــرف مبدأ التفاهم ، ولا تطيق – لضيقها وتفاهتهـــا – الأخـــذ والـــرد

للوصول الى الحق ، ويكاد لا ينبعث صوت حتى يلاحقه سوط من الإرهاب يطلب أما إخراسه وأما قتله)) .

(6)

أما في إنكلترا فقد إعتنق عدد كبير من أفراد الشعب الإنكليزي مذهب مارتن لوثر الإصلاحي والداعي الى حرية الفكر والعقيدة . وخلصوا الى أن للشعب الإنكليزي حقوقاً يجب أن تصان .. فساء ذلك الملكة ماري تيدور وشاطرها الرأي زوجها فيليب والكاردينال بول سفير البابا . وفتحت محاكم التفتيش في إنكلترا أبوابها وإقتادت الى السجن العالم جون روجرز .. وحكمت على الراهب الثائر جون هوبر نصير الفقراء والمعوزين بالموت حرقاً .. ومما قاله قبيل حرقه بلحظات : ((إستمروا بمحكمتكم هذه ! وإبعثوا بالرجال والنساء الى النار الآكلة ! وإعتزوا بما لديكم من قوة وسلطان ، غير أن كل قبس من النار

تشعلونها وتحرقون بها الشرفاء سيكون مشعلاً عظيماً ينير للبشر طريقهم الى الحرية الحبيبة !)) .

لكن لم تستطيع تلك السجون والنيران من أن تمنع ســـالكي دروب الحرية من ولوجها .. فقد صبر الإنكليز على المكاره من أجل حريتهم .. وكان كلما أحرقت محاكم التفتيش ثائراً أخلفه ألف ثائر .. وفي عام 1558 ، إستوت على العرش الملكة اليزابيـــت الأولى .. فمنعت الحرق ، وأباحت الحرية ضمن حدود لا تمـــس عرشها .

وفي هذا العصر ظهر عبقري الأدب العظيم وليم شكـــسبير .. الذي لا تنسى البشرية خدماته الجليلة خاصة في ميدان الحرية .. إذ طفق يعرض على الناس في مـــسرحياته بإســـلوب رائـــع وجذاب صوراً من ظلم الملوك في تلك الأزمـــان .. ودسائـــسهم وضحالة تفكيرهم .. وراح يسخر بهم مما ساهم كثيراً في إنتزاع تلك الغشاوة التي أعشت أبصار الناس عن حقيقـــة حكـــام تلـــك

الأزمان .. فإذا هم بشر مثلهم..لكنهم أكثر نذالة ولصوصية.. مما مهد السبيل الى طلب الناس للحرية كحق بديهي لجميع البشر .

ومن مفكري هذا العصر الأديب الإنكليزي جورج بوتشمان الذي وضع رسالة في مفهوم الحكم قال فيها : ((ما مبعث القوة ؟ .. إن إرادة الشعب هي المصدر الشرعي للقوة .. لقد نشأت هذه الإرادة من مبدأ طبيعي ، غريزي . أن الناس لكي يحكموا يجب أن يكون لهم حاكم ، وهذا المبدأ يعطيهم الحق في أن يقولوا رأيهم في هذا الذي يحكمهم . والشعب له حق أن يختار حكامـــه . وإذا كانوا فاسدين فللشعب الحق في أن يعزلهم)) .

وهذا الكلام جديد على مسامع الشعب الإنكليزي .. حيـــث تركت هذه الرسالة أثراً ذا شأن على الـــرأي العـــام الإنكليـــزي ونبهته الى أمور كان في غفلة عنها .. كما نظم بوتشمان اشعاراً هجا بها رجال الدين وظلمهم وأظهر مـــن فـــسادهم مـــا يـــصك

الأسماع .. فسجن وشرد لكنه لم يتنازل عن أداء واجبه في خدمة قضية الحرية .

يقول كارلتون كوفن في كتابه ((قصة الحرية)) واصفاً رأي بوتشمان : ((وهذا كشف كان ينتظره العالم . وقد يكون هنالك غيره ممن فكروا مثل هذا التفكير ، ولكنه – أي بوتشمان – وضع فكرته في كلمات . وليس هنالك ملك أو ملكة أو بابا أو قس يوافقه على هذا الرأي)) .

وفي أيام الملك شارل الأول المعروف بطغيانه .. ظهر في إنكلترا مصلح آخر يدعى ليتون الذي ألف كتاباً ندد فيه بمفاسد رجال الدين في عصره .. وما لبث أن أفتى بإمكانية أن يكون الإنسان مسيحياً طيباً دون أن يستعين بشعوذات ودجل الكثير من الكهان .. وراح يوجه الناس الى نور العقل وحب الحرية .. فإذا بالملك يعاقب هذا المفكر بإلزامه بغرامة مالية هائلة وقطع إذنيه من خلاف وجلده مرتين وحبسه مدى الحياة .. ولا يُعدم الطاغية

فقيهاً قانونياً يبرر جرائمه .. فقد أفتى أفقه قانونيّ عصره بركلي : ((ليس القانون سوى خادم الملك)) .. وبذلك تجرأ الملك على تعطيل البرلمان وتشكيل المحاكم التي تمارس التنكيل والتقتيل بحق دعاة الثورة في كل أنحاء إنكلترا .. حتى ثار المزارع كروميل – الشخصية الحاسمة في تاريخ إنكلترا – وظهر الشاعر ملتون الذي ألف كتاباً عن ((الدين الحق)) فيقول : ((أنه الكرامة . إنه الحرية . إنه الضمير النقي . إنها العدالة ! وكلها خصال لا يعبأ بها الملك النذل)) .

وأصطدم الشعب الإنكليزي بقيادة كروميل .. وكان أكثرهم فلاحين لم يتدربوا إلا على سلاح الضمير الحي .. ، بالملك المستبد وجيوشه المدربة والمسلحة .. ولكن الشعب إنتصر وقبض على الطاغية وحوكم وأعدم .. وهكذا إنتصر صولجان الشعب على صولجان الحاكم .. وإنتهى نضال الشعب الإنكليزي الى إقرار الحكم الدستوري في عام 1689 عندما أقر قانون الحقوق

.. الذي تضمن كل معاني الأسس الـــسليمة التـــي تقـــوم عليهـــا الحكومة الديمقراطية وبذلك ساهم الشعب الإنكليـــزي فـــي هـــذا النضال المستمر الذي خاضته الإنسانية جمعاء في سبيل الحريـــة وضد الطغيان والإستبداد .

الفصل الثامن

النهضة الأوربية وقضية الحرية3

ظلّ صوت فولتير يدوي مع صوت روسو حتى رفعا مناراً عالياً للحرية والمساواة

(7)

وفي فرنسا بدأ الصراع عنيفاً عندما لو حقت أول جماعة إستجابت لحركة الإصلاح التي قام بها لوثر فعذب أعضاؤها عذاباً لا ينبغي لأحد ثم أحرقوا بالنار ! لكن المقاومة لم تفتر .. وإذا بالصراع يتحول الى حرب أهلية شاملة وهي أقسى ما عرفته أوربا من معارك في تاريخها الطويل .. وإزداد أنصار الحرية ، وتطلع التاريخ الى إستشراف القيم الإنسانية النبيلة .

يصف الفيلسوف الفرنسي مونتين حال فرنسا في تلك العقود من القرن السادس عشر . قائلاً : ((إنه من الغلو الفضيع في تقدير قيمة آرائنا الخاصة . إن تحرق بسببها أحد الناس حياً !)) وسفه التعصب ونسبه الى السقم في الرأي والبلادة في النظر .. ثم يحدثنا التاريخ عن إنصياع الملك هنري الرابع سنة 1598 لضغط المفكرين ومجاراة الرأي العام .. في إصدار مرسوم يبيح للناس أن يكونوا على غير دين ملكهم إذا رغبوا . وهذا ما لم يحدث في تاريخ أوربا الوسيط حتى تاريخ صدور هذا المرسوم .. وإنها لخطوة كبيرة صوب الحرية .

كانت العلوم والمعارف حكراً على اللاهوتيين الذين يستندون الى ما جاء في التوراة من أخبار المعرفة الإنسانية .. واية معرفة تتجاوز التوراة لم يسمح بها بل يقع تحت طائلة العقاب كل من ينطق بها .. ومن هنا أوتي غاليلو الذي عذب وبرونو الذي أحرق بالنار .. ولكن عندما إكتشف كولمبس أمريكا

بطبيعتها وبشرها ، وحيث أن التوراة لم تعرف هذا العالم الجديد ولم تذكر شيئاً عن وجوده .. وبذلك كان هذا الإكتشاف صدمة لمباديء اللاهوتيين وفلسفتهم .. وأخذ الشك بعصمة اللاهوتيين من الخطأ يداخل النفوس ، وتوهجت أنوار العقول لتذيب خرافاتهم وخزعبلاتهم .. وفي الوقت الذي مهدت إيطاليا لعصر النهضة كانت فرنسا ثانيتها .. وإذا بالأفكار الإغريقية المكتشفة حديثاً عن طريق العرب .. تخضع لدراسات عميقة وواسعة ، وإتجه تفكير جديد ينزع الى الحرية إنتزاعاً لا تسولاً .. وتعالى نقير معاول نقد صريح وجريء للقيم والعادات والمعتقدات السائدة .. ويمكن القول أن مونتين قد ساهم في تحطيم الأساس الذي قام عليه مبدأ التعصب من خلال دعوته الى الشك الذي يعتبر باعثاً على التجريب .

من المعتقدات الشائعة في أوربا آنذاك هي أن الطبيعة البشرية شريرة .. مما حدا الحركة الإنسانية في عصر النهضة

للتصدي لهذه الأسطورة .. حيث جاء رابلييه ليؤكد أن الطبيعة البشرية خيرة في غرائزها .. وما على الإنسان إلا أن يفكر بحرية وأن يعمل بحرية .. ووصل الأمر في أواخر عصر النهضة ، أن تطالب الجمعية العمومية الفرنسية الملك بإحترام قراراتها ، وبإضفاء الصفة القانونية عليها .. فيما كانت تزرع بعض بذور التطلع لقيام نظام جمهوري .. لكن نكبة مروعة حلت بفرنسا مع إعتلاء لويس الرابع عشر العرش فيها .. فنظام الحكم الملكي المطلق يستمد حقه من الإله .. وصودرت حرية التفكير والمعتقد .. فقد صدر مرسوم يقضي بالموت على كل وزير يدين بغير الديانة الرومانية .. وإضطهد المفكرون ومنعت الصحافة .. والسجن والتعذيب والتقتيل على التهمة والظنة أمر جد عادي .

وفي هوس من الإستبداد والعنجهية يجرد الملك الجميع بقوله ((الدولة ! أنا الدولة !)) وراح يسعر فرنسا وأوربا حروباً شعواء أسكرت بعض المؤرخين ، فأضفوا عليه رداء العظمة

ريائاً ونفاقاً أو جهلاً .. أما حقيقة فتوحاته فقد وصـــفها فينيليـــون بقوله : ((أن فتوحاته ليست أكثر من سرقات كبيرة)) .

وكلما إزداد هذا الملك في طغيانه .. إزداد أنصار الحريـــة تصميماً على إنتزاعها من براثن الذئاب ومخالب الأسود ، ولـــو كان دونها الحتف الزؤام .

ثم جاء الفيلسوف الفرنسي ديكارت .. ووضع مبدأه الـــذي أطاح بقواعد التفكير القديم .. ((لكي ندرك الحقيقة ، علينـــا أن نتخلص ، مرة في حياتنا ، من الأفكار التي تلقيناها ، وإن نبنـــي من جديد ، وإبتداء من الأساس ، جميع القواعد التي نشيد عليهـــا معارفنا)) .. وبذلك يكون ديكارت قد ركز مبدأ الشك على قاعدة علمية .. ووضع قانوناً لحرية التفكير الإنساني ، ثم عـــزز هـــذا المبدأ على يد المفكر الفرنسي ((بايل)) الذي تبلورت آراؤه في تقرير حق العقل ، وحق الضمير في البحث الحر والرأي المستقل

.. وكان شديداً على التعصب .. يمور عنفاً على رجال اللاهوت الذين يضطهدون الأحرار .

أضحت فرنسا بهذا العصر تخوض غمار غليان فكري غير مسبوق .. فالفكر ينتج جديداً كل يوم .. والقديم يهاجم ويجر أذيال الخيبة .. والغيبات تسفه ويسخر بها .. أما الإستبداد الملكي فقد صار هدفاً للنقاد .. فهذا باسكال يكتب قائلاً : ((أي شيء أبعد عن العقل من أن يختار لحكم دولة الطفل الأول لملكة ! لماذا لا نختار لحكم دولة رجلاً من بين المارة !)) .. فيما يوجه الشاعر لافونتين ضربات مؤلمة للملك عندما يكتب في ((تنهدات فرنسا المستعبدة)) قائلاً : ((أن ملوك فرنسا قد جعلوا من أنفسهم بابوات وأحباراً .. أن الملك هو كل شيء والدولة لم تعد شيئاً)) . أما برادلو فيعلن : ((أنهم ليسوا ملوكاً من أجل أنفسهم بل من أجل الشعوب)) ويهتف لابروبير : ((أن الظلم لا يتطلب فناً ولا علماً لكي ينفذ)) .. ثم يصرخ قائلاً : ((لا وطن مع الظلم)) ..

أما الشاعر العظيم موليير فيخاطب أحد النبلاء في مسرحية لـــه قائلاً : ((ماذا فعلت في هذا العالم لكي تعتبر نبيلاً ؟ هل تعتقد أنه يكفيك في ذلك أن تحمل الأسم والأوسمة ، وإنه من المجـــد فـــي شيء أن تولد من دم (نبيل) عندما تحيا حياة الأنذال ؟ لا ! لا ! إن الميلاد ليس شيئاً ما دامت فضيلة النفس معدومة)) .

وإتجه المفكرون بشكل عام إتجاهاً شعبياً .. فشرعوا منددين بالطبقات التي تثري على حساب الشعب حتى ولو لم تكـــن مـــن طبقة النبلاء واللاهوتيين .. كذلك أولى هؤلاء المفكرون إهتمامـــاً كبيراً لحالة الأرياف التي يرثى لها . ونشطت الـــروح المعنويـــة التي أخذت تضرم نيران الإنتفاضات لدى الطبقات المحرومة ضد القوانين والأنظمة الجائرة .. وهكذا إنتفض العمال وثار الفلاحون أكثر من مرة .. حتى يمكن تسمية القرن السابع عشر في تـــاريخ فرنسا بقرن الإنتفاضات الشعبية التي مهدت للثورة الكبرى فـــي القرن الثامن عشر .

(8)

وفي القرن الثامن عشر كانت طبقات الشعب الفرنسي لـــم تزل على صورة الأنظمة البالية ، فهي طبقات ثـــلاث .. طبقـــة الأشراف المتنفذة والتي لم تزل تحتفظ بالكثير من إمتيازات عهود الإقطاع .. وطبقة رجال الدين ، فقد كانت تشاطر طبقة الأشراف قوة وثراءً وكان اللاهوتيون كالأشراف يـــأكلون ولكـــن دون أن يعملوا ، ويحاكمون الناس ويجبون منهم الضرائب بقوة القانون .. وكانوا يبررون للملك قراراته وتصرفاته مهمـــا كانـــت جـــائرة أوتافهة .

أما الطبقة الثالثة ، طبقة الشعب المظلوم والمحروم .. كان أبناء الشعب يعملون دون أن يسدوا رمقهم ، ينتجون ولكنهم عراة حفاة .. ولعل من نافلة القول أن معظم المفكرين والأدباء والفنانين والعلماء الذين قادوا البشرية من عصورها البدائية الى عـــصور النهضة والحداثة ، قد جاءوا من هذه الطبقة المسحوقة .. التـــي

تميزت بالطيبة وحسن النية حتى مع أعدائها وظالميهـــا ونـــاهبي قوتها .

تقدم أبناء الشعب بإلتماسات الى الملك .. والى الأشراف .. والى رجال الدين .. يتمنون عليهم رفع بعض الحيف والأجحاف عن كاهلهم .. ويعرضون مقابل ذلك ولاءهم للحكـــام ، لكـــن لا يسمع لهم قول .. ولا يستجاب لهم طلب .

أما أحكام القضاء فكان من السهولة بمكـــان إلغاؤهـــا ، إذا صدرت ضد أبناء الطبقات الراقية ، وكان مجلس الملك هو من له حق إلغاء تلك الأحكام .. أما المتنفذون في تلك الأيـــام فيكفـــيهم الحصول على ((الرسائل المختومة)) .. التي تصادق من الملك ، حتى تباح أعراض الناس وأموالهم ودماءهم .. ومـــن أســـهل الأمور أن يتخلص هؤلاء المتنفذون من أخصامهم .. بقوة هـــذه الرسائل .. أما ((حق الصيد)) الذي يتمتع به الملوك والأمـــراء فلطالما غيب الفلاحين في غياهب السجون أو ساقهم الى مقاصل

الإعدام إذا هم تجرءوا على صيد الحيوانات في حقولهم أو أجروا فيها أي تغيير يتعارض وقانون ((حق الصيد)) .

تملكت الطبقات العليا في فرنسا نصف الأراضي الزراعية .. فيما آل النصف الثاني الى عشرات الملايين من الشعب .. وكان الأشراف لا يدفعون شيئاً من الضرائب .. بينما كانت الضرائب تثقل كاهل الفلاحين الذين يعملون في حقول الملاك .

وكانت النسبة المئوية التي يدفعها الفلاح من الضرائب هي 53% للحكومة عن عقاره ومنتجاته و 15% للكنيسة و 15% للنبيل الذي يقيم الفلاح في مقاطعته .. و 17% هي كل ما يتبقى للفلاح وعائلته لا تفي لكفاف حاجته .. ومن هذه البقية الهزيلة كان يدفع ضريبة أخرى هي ضريبة الملح .. ((فكانت حكوماتهم تحتكر بيع هذه المادة وتفرض على كل إنسان أن يشتري قدراً معيناً منها كل عام سواء أكان في حاجة إليه أم لا !)) .

(9)

هكذا تناسل هذا الأكفهرار في حياة الطبقات الشعبية .. وسامها العوز ذل الحياة .. أما الإستبداد فكثيراً ما رسفت في أغلاله .. لكنها كعادة الشعوب لما تزل تستشرف الأمل وتتطلع الى الخلاص ، فإذا صدمها الواقع وأعجزها ، وناءت بكلكله .. صارت تحلم من دون أن يمنعها من ذلك أحد ، .. ولا يمنعها من أن تفكر بصمت .. حتى إذا تمكن منها التوتر وأضطربت ، رن صدى خترفتها .. وراحت تفكر بصوت قد يسمعه البعض ليمهد ليقظتها فغليانها فإنتفاضتها فثورتها .. ولما كان المفكرون والأدباء .. هم واضعوا بذرة الحرية وسقاتها .. فقد تحملوا في هذا القرن الكثير من العنت في سبيل حرية الإعتقاد والرأي .. فهذا مونتسكيو الذي جال في الأقطار الأوربية وهاله أمر التعصب الذي لا تزال بقاياه شاخصة ، ألّف كتابين قيمين هما : - روح

الشرائع ، ورسائل فارسية ، هاجم فيهما التعصب قـائلاً : ((أن التعصب حالة من حالات الخرف للروح البـشرية ، ولا يمكـن أعتباره إلا أنه إغماء أصاب العقل البشري وآذاه)) .

وإتسع نطاق المطالبة بالحرية ليتجاوز حرية المعتقد الديني الى ميادين أخرى .. بل ذهب هؤلاء المفكرون أبعد مـن ذلـك عندما أكدوا أن من حق الإنسان أن يؤمن بدين ما ، وفي الاّ يؤمن : ((لأن كل ما يأتيه الإنسان مرغماً أو مرئياً لا نفع فيه بل هـو الى الضرر أقرب !)) .. وقدس هؤلاء المفكرون حرية الإنسان شريطة الاّ تصطدم بحرية الغير .. وفي ذلك يقول ((ديـدرو)) في دائرة المعارف الفرنسية : ((الحرية هي الحق في أن نفعـل كل مايجيزه القانون)) .. وهاجموا التفاوت المرعب بين الأغنياء والفقراء .. وشنوا حملات قوية ضد الضرائب التي تنهك قـوى الفلاحين .. ودعوا الى المساواة ، ونددوا وشنعوا على إسـترقاق الملونين ، ودافعوا عن وحدة الأجنـاس البـشرية ، وإستبـشعوا

مساويء الحكم المطلق ، وأخذوا يطلقون دعوات توجه الــشعب صوب المطالبة بقيام نظام للحكم يحترم الحقوق الطبيعية للأفــراد .. ويكون فيه الشعب مصدر السلطان .. وفي ذلك يقــول ((مــا يلي)) : ((من الواجب والضروري أن يــضع الــشعب نفــسه قوانينه وشرائعه لأنه يتألف من كائنات تعقل وتفكر)) .

وأدركوا أن الطغيان هو نقيض فكرة قيام وطن صــالح .. لأنه يخنق الخلق الإنساني الذي يرمي الى إستشراف المستقبل .. يقول لابروبير : ((أن الوطن لا يمكن أن يعيش في الإستبداد)) .

وإستمرت أفكار أدباء فرنسا في جيشان متعاظم .. غير أن إثنين من هؤلاء قد طالا العلى .. ونظرا للحرية ((وقدماها للناس خبزاً وماءً ونوراً وهواء)) .

ألا وهما المفكران العظيمان روسو وفولتير ، اللذان آمنا بخير الإنسان .. وبمصيره السعيد إذا ما عزم على تحطيم قيوده .. وهكذا مهدا له أن يقوض أركان العبودية والإستبداد .

فجان جاك روسو الذي عُد الأب الأول للثورة الفرنسية الكبرى .. وواضع مبادئها قد سار ذكره في الأقطار الأوربية وإنتشرت نظرياته حيث قوبلت بكل رضا وحماس من الناس .. ودعا الى ضرورة تغيير البناء الإجتماعي القائم خاصة في كتابه ((العقد الإجتماعي)) الذي حدد فيه علاقة الحاكم بالمحكوم وبالتالي وضع أسس نظام الحكم المطلوب أقامته .. وقد سمي هذا الكتاب بإنجيل الثورة لما له من صلة حميمية بالثورة الفرنسية فيما تتلمذ الكثير من زعماء الثورة على هذا الكتاب ومؤلفه .

ودعا روسو في كتابه هذا الى مبدأ ((سيادة الشعب)) ومزق شر ممزق النظريات القائلة بالحق الإلهي للملوك .. ودعا

الى التسامح الديني وحرية الفكر وقضية المساواة في الحقوق والواجبات وأصولها الطبيعية .

لقي هذا المفكر العظيم من الإضطهاد والتنكيل الشيء الكثير . فقد أحرقت كتبه في باريس حسب إرادة ملكية .. ثم صدر أمر ملكي أخر لزجه في سجن الباستيل .. ففر طريداً الى ألمانيا ، حيث أكرمه مليكها فريدريك الكبير وكان متسامحاً .. لكن رجال الدين لم يعدموا حيلة للخلاص من روسو الذي بات يقضِ مضاجعهم بأفكاره المتحررة والرامية الى تقويض هيمنة الفكر اللاهوتي .. فلفقوا له تهمة ورموه بالإلحاد والمروق عن الدين ، وكادوا أن يتخلصوا منه حرقاً بالنار .. لكنه خلص منهم نجياً ، وولى وجهه شطر إنكلترا عام 1766 ثم مالبث أن عاد الى فرنسا ليقضي نحبه .. بعد أن مهد للثورة الفرنسية الكبرى والتي ستعصف بكل عروش الإستبداد والطغيان في أوربا وإنتقالها الى عصر الحرية والعقل والكرامة .

أما فولتير الذي عد الأب الثاني للثورة الفرنسية فقد شاطر زميله روسو في تأثيره في الشعب الفرنسي والشعوب الأوربية ، في تبشيره برسالة التسامح والتآخي بين بني البشر .. فصوب شفار حرابه الى التعصب والمتعصبين بكتابه الجريء ((مقبرة التعصب الديني)) ، والذي قال فيه : ((أن الذي يعتنق ديناً من الأديان من غير تفكير ، شأن الأغلبية من الناس ، لهو أشبه بالثور الذي يستسلم للنير ويحمله على عنقه راضياً مختاراً)) .

عاب فولتير الحكم المطلق وأعتبره أم السيئات .. وتحدث عن الوطن وحبه .. فيما نفى المواطنة الصالحة عن المواطن المحروم المضطهد ، لعدم إستشعاره بما يشده الى هذا الوطن .. ((ما أغلى الوطن على القلوب الطيبة المنبت)) .. ووسم الأثرياء بالنفاق في حب الوطن فقال : ((إن المرء ليتساءل بينه وبين ضميره هل يحب رجل المال وطنه حباً قلبياً)) .

يعد فولتير الساخر الأكبر في تاريخ البشر .. حيث يطلي رسمه البديع في التعبير عن أفكاره الإنسانية الرائعة بأسلوب ساخر قاتل .. يقول في مذكرات له عن التسامح رفعها الى الملك عام 1775 : ((التركي أخ لي ! الصيني ! اليهودي ! والسيامي ! نعم ولم لا ؟ إن في أوربا أربعة ملايين من السكان لا ينتمون لكنيسة روما فهل نقول لكل واحد منهم يا سيدي ، حيث إنك كافر مقضي عليه بالعذاب الذي لا مفر منه ، فإنني لا أريد أن آكل معك أو أن أتعامل)) وظل صوت فولتير يدوي مع صوت روسو .. حتى قوضا عروش الإستبداد .. وهدما جدران التعصب .. وهزا النظام الإجتماعي هزاً عنيفاً حتى غيراه .. ورفعا منارا عالياً للحرية والمساواة وتأصيل الحقوق الطبيعية للفرد .

وكان من حق مؤرخي القرن الثامن عشر أن يصطلحوا على تسميته بـ ((عصر فولتير)) وفي 14 تموز عام 1789 م .. سقط سجن الباستيل الرهيب .. الذي زج فيه عتاة الإستبداد

يوماً ما المفكر العظيم فولتير وامثاله .. ودكت حصونه .. وعمت الثورة أرجاء فرنسا .. وتهاوت قلاع الأشراف ورجال الكنيسة .. وفكت أغلال العبودية وتكسرت قيود السخرة .. وألغيت الضرائب المجحفة .

وخلال السنة التالية للثورة عكفت الجمعية الوطنية الفرنسية على وضع وثيقة حقوق الإنسان التي قُعّد عليها الأساس القانوني للدستور الفرنسي .. ((ووضعت هذه الوثيقة التي غيرت معالم التاريخ وثلت عروش الإستبداد وحررت العقول وبدلت الظلام بالنور ووضعت العدل في موضع الظلم وأصبحت في نظر الشعوب مناراً يهتدى به ، وتركزت على أصولها دساتير أمام العالم بأسره)) .

الخاتمة

يمكن القول ان الحضارة الغربية مرت بثلاث احقاب تاريخية .. وهي العصور القديمة التي سبقت القرن الخامس الميلادي .. ثـــم القرون الوسطى (ق 5 ــ ق 15) .. ثم عصر النهضة وما تلاه من تقدم علمي وتكنولوجي .. حيث انتج الفكر الـــصناعي الـــذي يحتل اليوم ويقود دفة الحياة الانسانية اقتصاديا وسياسيا وابداعيا . ان الفكر النهضوي الاوربي نما على اكتاف الحـــضارة العربيـــة الاسلامية التي تعد المؤسس لمعظم العلوم العصرية التي قامـــت عليها الحضارة الاوربية باعتراف جهابذة علماء الغرب ومفكريه. بعد انحسار القرون الوسطى .. دخلت اوربا وخاصـــة الاجـــزاء الغربية منها في عصر جديد اصطلح على تسميته بعصر النهضة الذي امتد ثلاثة قرون ، من القرن الرابع عشر حتى القرن السابع

عشر .. ولعل اسبق الاحداث التي رافقت النهضة .. التغيير الذي حصل في علاقات الانتاج حيث اخذت العلاقات الراسمالية في النمو وسط المجتمع الاقطاعي .. مما سهل تفكك القاعدة الاقتصادية للنظام الاقطاعي .. اعقب ذلك ظهور طبقة التجار (البرجوازية) التي لعبت دورا حاسما في تاريخ الشعوب الاوربية ، واخذت على عاتقها مهمة تطوير وسائل الانتاج عن طريق الاختراعات الحديثة .. ثم انتجت النظريات الاقتصادية الجديدة والتي اودت بشكل نهائي بالنظام الاقطاعي .. وكان لابتكار المطبعة المتحركة ابان عصر النهضة اثر كبير في احداث تغيير جذري في نمط الحياة فكريا واجتماعيا .. اما انتشار البارود في هذا العصر .. فقد صار سلاحا يهدد حصون السادة ويزعزع النظام الاقطاعي .. ومع تطور الاسلحة شرعت اوربا بالتطلع للسيطرة على العالم من خلال الكثير من الموجات الاستعمارية التي من خلالها بنت عالمها المتطور ولكن على حساب الشعوب

المقهورة التي تعرضت للنهب والسلب من قبل الدول الاوربية .. كما ادى ظهور حركة الاصلاح الديني على يد لوثر عام 1517 م الى تغيير جذري في انماط الحياة والفكر ، وشرع الفكر الكنسي الذي كان مهيمنا حتى عصر النهضة بالانجلاء .. فيما اخذ نجم الكنيسة وهيمنتها بالافول تدريجيا .. وكان لرحلات استكشاف العالم الجديد التي بدأت في القرن الخامس عشر .. اثر مدو في الغرب .. اذ امدتهم بقوة هائلة معنويا وماديا استشعروا من خلالها العظمة والقدرة على النفاذ في المجهول لاكتناه اسراره وفك طلاسمه .

كما رافق عصر النهضة قيام حركة احياء العلوم القديمة كالفيزياء والفلك والطب والرياضيات .. الامر الذي شجع انتشار الروح العلمية .. حيث سادت الدعوة لمهاجمة كل ما هو قديم واتباع طريقة التجربة في البحث عن الحقائق فيما جاءت اراء كوبر نيكوس الذي اثبت فيها بان الارض وجميع السيارات الاخرى

تدور حول الشمس كما تدور الارض حول نفسها .. جاءت ممهدة لثورة فكرية وعلمية اطاحت بالمعتقدات القديمة واللاهوتية ، فيما شجعت دراسة العلوم الطبيعية على اساس الملاحظة والتجربة .

ان مظاهر النهضة الاوربية لم تقتصر على بلد اوربي دون سواه ، ولا جرى تطورها او ذبولها بذات الوتيرة ونفس النمط .. فقد تباينت هذه المظاهر بحسب ظروف كل بلد .. الا انه يمكن القول بوجود نوع من الاجماع العام على اعتبار ايطاليا مهد النهضة الاوربية .. وفيما بدأت الحركة الانسانية التي رافقت راية النهضة .. وجعلت من الانسان محور الاداب والفنون والعلم والفلسفة والاخلاق .

نبغ الايطاليون قبل غيرهم من الاوربيين في ميدان الفنون الجميلة وساهموا في عصر النهضة بنتاجات ذات قيمة فنية عالية .. حيث سار الفن من الاقتباس صوب الابتكار متاثرا بروح العلم وبالحياة

العلمية .. وانتهى الى نوابغ الفن الايطـــالي العظـــام كدافنـــشي وانجيلو .

مهما يكن من امر فان الفترة الممتدة بين القـــرن الرابـــع عـــشر والقرن السابع عشر كانت بالنسبة الى اوربا سيما الاجزاء الغربية منها .. فترة تحول عظيم ، خرجت فيها مـــن عـــالم العـــصور الوسطى المترعة بالظلام والخرافات ، وجمعت قواها علما وتربية واصلاحا .. وتغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية لـــتلج بقـــوة وحماس منقطع النظيـــر ، العـــصر الحـــديث .. عـــصر العلـــم والتكنولوجيا والدولة الوطنية ذات السيادة .. عصر المجتمعـــات القوية المشبعة بالروح الديمقراطية والتفكير العلمي .

المصادر

١ . د . كمال مظهر أحمد / النهضة / منشورات وزارة الثقافة والفنون / العراق ١٩٧٩ .

٢ . د . أحمد سليم سعيدان / مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام / المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب – الكويت ١٩٨٨ .

٣ . د . سعيد علوش / قراءة جديدة في جدلية النهضة العربية / دار الشؤون الثقافية / بغداد ١٩٨٦ .

٤ .علي حيدر سلمان / تاريخ الحضارة الأوربية الحديثة / دار واسط للدراسات والنشر والتوزيع / بغداد / ١٩٩٠ .

5 . د . جلال يحيى / التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر / جامعة الكويت ١٩٨٢ .

6 . جورج جرداق / الامام علي صوت العدالة الانسانية / المجلد الثاني / بين علي والثورة الفرنسية / منشورات دار مكتبة الحياة / بيروت – لبنان ، 1970.
7 . البيربابيه / تاريخ اعلان حقوق الانسان / تعريب الدكتور محمد مندور / منشورات جامعة الدول العربية .
8 . محمد الغزالي / الاسلام والاستبداد السياسي .
9 . كارلتون كوفن / قصة الحرية / تعريب محمد عبد العزيز الصدر .
10 . روحي الخالدي / تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب .
11 . حسن جلال / تاريخ الثورة الفرنسية .
12. رئيف خوري / الفكر العربي الحديث .
13. حسن عثمان / سافونا رولا .
14. سلامة موسى / كتاب الثورات .

15. مجلـــة الكـــوثر / العـــدد (6) فـــي 30 / 12 / 1999/ الافتتاحية / النجف .
16. مجلة الكوثر / العدد (47) في 1 / 2 / 2002 / الافتتاحية / النجف
17. غيورغي غاتشف / الوعي والفن / ترجمة : د. نوفل نيّوف / مراجعة : د. سعيد مصلوح / المجلس الوطني للثقافة والفنـــون والاداب / الكويت 1990.
18. الدكتورة سيجريد هونكة / شمس الله على الغرب – فـــضل العرب على اوربا / ترجمه وحققه وعلق عليـــه الـــدكتور فـــؤاد حسنين علي / دار المعارف بمصر 1969.

الفهرست

الاهداء

المقدمة

الفصل الاول : مراحل الحضارة .. وجذور النهضة

الفصل الثاني : الانتلجنيسيا.. واحداث النهضة الكبرى

الفصل الثالث : الطبيعة الخلابة جعلت ايطاليا رائدة النهضة الاوربية

الفصل الرابع : النهضة التي نادت بامامة العقل ومجدت كرامة الانسان

الفصل الخامس : النهضة الاوربية والفنون الجميلة

الفصل السادس : النهضة الاوربية وقضية الحرية 1

الفصل السابع : النهضة الاوربية وقضية الحرية 2

الفصل الثامن : النهضة الاوربية وقضية الحرية 3

الخاتمة

المصادر

الفهرست

الأديب محمد كاظم وسمي

مواليد / ديالى / العراق

بكالوريوس اقتصاد

يعمل في سلك التربية والتعليم

عضو الاتحاد العام للادباء والكتاب في العراق

أديب .. يكتب في الصحف والمجلات

والمواقع الالكترونية العراقية والعربية

محاور كتاباته :

القصة القصيرة

النقد الادبي

الدراسات الفكرية والفلسفية

دراسات في النهضة والحداثة والعولمة

المقالات السياسية

تصميم الغلاف

فاطمة الفلاحي